Muhammad al-Ahmad

مُنْتَأَى

محمد الأحمد

رواية

محمد الأحمد   مُنتأى   رواية   2020

مُنْتَأًى

الكتاب : منتأى
المؤلف: محمد الاحمد

الصنف: رواية

الطبعة: الأولى

سنة الطبع : 2020

ISBN : 978 – 9922 – 9244 – 4 - 1

رقم الإيداع في دار الكتب و الوثائق ببغداد (32) لسنة 2019

تصميم الغلاف : محمد النواس

الإخراج الداخلي : علي كاظم الشويلي

الناشر: دار الورشة الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

عنوان الدار : بغداد – شارع المتنبي – مجمع الميالي – الطابق الاول
الهاتف: 009647714343692 \ 07729247088
alwarsha2018@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب او أي جزء منه او تخزينه في نطاق استعادة

معلومات او نقله بأي شكل من اشكال دون اذن خطي مسبق من الناشر

ان الاراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار الورشة الثقافية

مُنْتَأَى

محمد الاحمد

روايـة

هذه الرواية ليست من الخيال، والأحداث فيها حقيقية، وأي تشابه مع حكايات أخرى، بظروف مشابهة الا لتؤكد أنها أزمة انسانية مشابهة.

"أية خطوة من خطوات الهجرة قد تكون خطوة موت، تبتدئ بكابوس سقيم، وربما لن ينتهي حتى بعد الوصول".

******

"أولُ الإبداع عدم القناعة بما نكتب، وما نبتكر".

وجهة أولى

(لَا مُنْتَأًى عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ والحُمَمِ[1])

.1

أخرَّنا المهرّب في مدينة "بودرم[2]" أكثر من أسبوع، وفي كل مرة كان يعتذر متحججاً بحالةِ البحر تارة، وأخرى بحالةِ خفر السواحلِ.

كانوا يتعاملون معنا كبضاعة مُكدّسة في مخازنهم، ولسنا بشر، كل ما علينا أن تنتظر الوقت المناسب لتنزل إلى المتجر لتسويقها.. حيث يعملون وفق ترتيبات سرّية لا يعلم بها غيرهم كفريق عمل متكامل؛ المهم جاء إلينا مندوبهم في الساعة الحادية عشرة ليلاً، ليقول:

- "سنخرج بكم من تركيا هذا اليوم ".

---

[1] شاعر قديم

[2] مدينة تركية

بقينا خمسة أشخاص تعارفنا مصادفة في الباص المنطلق من مدينة "اسطنبول" إلى مدينة "بودرم"، وصادف أيضاً أن كنّا في فندق واحد. وقررنا أن نكون معاً إلى ما يشاء الله.

كنا نلاحظ أغلب الناس الراغبين بالهجرة بواسطة التهريب، قد ألتفّوا بعضهم قرب بعض وكونوا مجامع من جنسيات مختلفة، أكثرهم سوريون وعراقيون، وبينهم من الأفغانيين والإيرانيين. أسرابُ حمام يجمعهم الخوف من المجهول الذي يفرش ظلاله على كل شيء حوله.. خاصة عندما يكون الإنسان منا ينتظر خطوة خلاصه ليضع فيها مصيره، فإما أن يصل إلى برّ أمانه، أو يرجع إلى بلده ليواجه الكابوس الأبدي الذي جثم فوق زمانه ومكانه.

كنت الأشيب الشعر الوحيد الذي بينهم فأطلقوا عليّ لقب "العم"، أما الأربعة الباقون منهم **"مناف، أحمد، عادل، مهند"**[3].. قاربت أعمارهم تقريبا الثلاثين أو أقل. وجمعت بيننا النكتة، والهم المشترك.. وجدنا أنفسنا بأننا مستعدون لرحلة الزورق، برغم المخاطر العظيمة التي تحيق بها، فهي سريعة الوصول، وتوفر مالاً ووقتا.

- اعتمد السرد في هذه الرواية تبادل الادوار بين الاصوات الاربع. يروي لنا كل منهم بلسانه عن رفيق رحلته، بمثلما شاهده بأم عينيه، وأذنيه.. شهود كل الاحداث وهم يتحدثون لنا، بتبادل المواقع والاصوات.

كان همّنا الوصول فاتفقنا أن نسند بعضنا بعضا بقدر ما نستطيع، ثم توزعنا في الفندق على غرف متقاربة وبقينا نلتقي بشكلٍ متواصل، نتبادلُ ما نحصل عليه من المعلومات حول الرحلة..

وعندما جاء المهرّب إلى غرفنا يبلغنا بموعد الرحلة. استغربنا عدم استخدامه الموبايل، ولكن ذلك لم يكن يعني لنا شيئا، سوى لضمان عدم تسرب أمره، وأن تلقي عليه الشرطة القبض في أية لحظة.

بعدها صحبناه بكتمان دون أن تكون لدينا أية فكرة عن الكيفية.. قلت لنفسي "المسافة بين الجزيرتين لا تتجاوز الساعة أو الساعتين، وسوف نتحملها، كيفما تكون".. ثم اتفقنا معه على مبلغ قدره 1400 دولار ندفعه إليه قبل الانطلاق، ولم نساومه في ذلك الأمر.

خرجنا ليلا من الفندق بصحبة دليل يعمل مع فريق التهريب مشيا على الأقدام، حيث كان الظلام في طرقات المدينة مليئا بالأضواء. دليلنا كان شاباً سورياً في حوالي الخامسة عشرة من عمره، يحمل في يده مصباحا صغيرا ببطارية، وما إن وصلنا إلى مكان ما حتى صاح به صوت كأنه جاء من عمق الظلمة أن يطفئ المصباح، وأن لا يستخدمه أبداً. فأعاد تثبيته في حلقة حزامه.

مشينا معه قريبين من بعضنا بعضا، نتحرك في مكان كله أشجار صغيرة، وفجوات لحفر عميقة، ومتعرجات حادة.

بعد نصف ساعة، كنا قد وصلنا إلى حافة منحدر عميقة تصل حتى البحر.

بقينا نسمع صوت البحر، ورائحة ماء طيبة تضرب أنوفنا..

التفتنا إلى المدينة التي بقيت خلفنا متحولة إلى قطع متناثرة من الأضواء، وكأنها تستحم في كرنفال بقيّ يغطيها.

وجدنا البحر بعيد المنال حيث يلزمنا نزولا، أكثر من 200م في انحدار يستمر إلى الأسفل.

سأل الدليل: من يريد أن ينزل منكم أولاً إلى الأسفل؟

وأخرج هاتفه من حقيبة صغيرة كان يشدّها على وسطه، متصلاً بصاحبه الذي أخبره "إنه لم يستطع وحده أن ينزل محرك القارب"، وكان علينا أن نتعاون معه لإنزال ذلك الجزء الثقيل كل تلك المسافة حتى حافة البحر. وهذا يعني أن نحتمله كل ذلك النزول الحاد.

كان يصعب النزول منه في عزّ النهار، وما بين دفع وسحب بيننا استطعنا بعد عناء الوصول به حتى حافة البحر حيث بقيت لنا خمسة أمتار، طلب منا فتح القارب المطاطي بينما كانت الأرض مبللة، وزلقة.

استطعنا أن نفرشه على الأرض الصخرية، حيث لم يكن القارب المطاطي منفوخا، فتطلب منا نفخه وتهيئته، وتركيب المحرك

جهدا كبيرا. استخدمنا ثلاثة منفاخات يدوية، متعبة جدا، تناوبنا على النفخ فيها، ولم نتعود على استخدامها حيث كانت تشبه تلك التي يستخدمها الحداد في إدامة وهج النار.

توزعنا حول القارب من ثلاث اتجاهات، ورحنا ندخل خراطيم الهواء في ثلاث فتحات مخصصة لدخول الهواء، وأخذ تدريجيا يرتفع عن الأرض. كنا نراه لأول مرة ولم نكن قد تعاملنا مع مثيل له من قبل. كان مقسما من الداخل إلى غرف مصممة لتمتلئ بالهواء في وقت واحد. تناوبنا بهمة كبيرة عليه حتى ارتفع كثيرا عن الأرض، من بعد أن استنزفَ منا جهداً امتدَّ لأكثر من ساعة.

وبقينا ننظر إلى البحر ونرى ثمة موجات صغيرة تخترق الليل ملامعة من ضوء القمر. كان قريبا منا، وكأنه في تلك الساعة هادئا كوحش عملاق قد استراح من نهار متعب.

كنت أحدق إلى المسافة المظلمة في تلك المساحة الضائعة، ثمة آمال قد تسفر عما وراء هذا البحر العظيم. كمٌّ عظيمٌ من الماء سوف تساعدنا على أن نطفو فوقه، ونرجوها أن تكون رحيمة بنا حتى خلاصنا. بعضنا يرنو إلى خيمة الظلام التي تغطيه بفرح كبير ممتزج بخوف عظيم.

بلغ عددنا ثلاثة وعشرين شخصاً مع ذلك الشاب السوري، حيث جُبلْنا على أن نتقاسم الاضطراب والقلق والخوف، وننتزع من بين أسنان الظلام أملنا بالوصول إلى تلك السواحل التي تكاد تبين أنوارها، من بعيد. يكاد أن ينطلق الزورق بخط مستقيم إلى ذلك الفنار الساحلي التابع لليونانيين. كأننا صرنا نتحدى موتاً لم يعد يهمنا سوى الانعتاق من قيد يكاد يخنقنا ذلّاً.

كنا نتحاور بهمسات متواصلة، تتخللها ضحكات لم تكد ترتفع عن صوت هدير الخوف الهادر عميقا بين أعماقنا.

صرنا نفتعل السؤال تلو السؤال؛ فعلمنا منه أثناء النفخ بأنه اضطر للعمل مع المهربين قبل ثلاثة أشهر من بعد أن تخلف عن مجموعته، وتعرض لـ"ضيم الزمان" على حدّ تعبيره..

توزعت بيننا التهكمات، والضحكات بين لحظة وأخرى كأننا نرتجي التخلص من هذا الكمّ الموحش من الألم والثقل. محدقين إلى وطأة ظلام متواصل حيث لم نر شيئا يمكن أن يكون أمامنا سوى خط الأفق. نرغب أن يكتمل القارب ويصل بنا إلى تلك الجزيرة اليونانية.

بقينا نعمل في غمرة نشوة الوصول. وقبل أن يكمل الزورق ارتفاعه بشكله الكامل وصلتنا أصوات مهمهمة مثل كلاب شرسة، رأينا مجموعة مسلحة تتراكض باتجاهنا، بملابسٍ سود، ظننا أول الأمر بأنهم

شرطة السواحل، في تلك اللحظة لا ندري كيف التصرف، ولكننا تحركنا مع تحرك المجموع، قفزنا مرتعبين كل في اتجاه، متوارين عن الأنظار.

همُ أيضا لا يحملون أنوارا كاشفة. من حسن حظنا كان الولد الدليل قريبا منا، لحناه وقد قفز إلى الصخور، تبعناه، دون أن نلتفت وجدنا أنفسنا نصعد بهستيرية. وكأن تعبنا قد ولّى ولم نكن إلا في مأمن عن الخطر في عمق ظلام دامس.

تبين لنا بأنهم لم يكونوا من شرطة خفر السواحل بل كانت عُصبة سلبّ مُسلّحة بسكاكين، وهراوات. تمكنوا من بعض ضحاياهم، وسرقوا منهم ما استطاعوا إليه سبيلا، ثم انطلقوا بزورقنا هاربين به إلى الجزيرة.

ثم عرفنا أن دليلنا الصغير لم يكن يعلم بما نصبه لنا "معلمهم"، وعدنا في الليلة نفسها مرة أخرى إلى الفندق الذي انطلقنا منه. ولم نستطع أن نلتقي بذلك المهرب، لاستعادة نقودنا. لكننا علمنا في اليوم التالي أن الشرطة تمكنَّتْ من المُهرّب، وقادته ضرباً إلى المخفر.

.2

غالبا ما تنطلق رحلات المهربين ليلاً، حيث لا يخبرون زبائنهم بموعد الانطلاق إلا قبل اللحظات الأخيرة لبدئها. تحسباً من الوشاية أو رقابة البوليس.. إثر دسيسة مهرّب آخر، يودّ أن يزيح صاحبه من طريقه. حيث يتم نقل الناس من مكان إلى آخر بواسطة برادات مغلقه، وغالبا ما تكون مُظلمة، مُرعبة. نظامٌ متكاملٌ من السماسرة المتخفين وراء الظلال. غالبا ما يستخدمون فريقاً متكاملا من مختلف الجنسيات، يسيّرون لهم مشاويرهم الخطيرة، لأجل التنصّل من محاسبة القانون، يجازفون بالأرواح من أجل مكاسب كبيرة من المال، وغالبا ما تكون برامجهم أغرب من الخيال وبلا رحمة. سماسرة يعملون بحذر. متحايلون على القانون الدولي بشكل عام، يستلمون مبالغ ضخمة من المهاجرين، ولا تهمُّهُمُ الكيفية التي يصل بها الزبون المغلوب على أمره، حيث يكون مُضطراً.. مُطيعاً.. صاغراً كقطعة جامدة، عندما تحين ساعة الانطلاق يكون "عزرائيل" بصحبتهم دون أن يعلموا بأنهم يصاحبون الموت المحقق. كلهم يدورون للاقتراب من نقطة عمياء، مموَّهة، وبعيدة عن أجهزة خفر السواحل، ليتم تهريبهم مستخدمين يخوتا

قديمة كانت تستخدم للصيد. تعبر بهم بحرُ **إيجة** وإيصالهم إلى سواحل الجزر اليونانية.

كتابة رواية عن أمر كهذا يتطلب تفاصيل لا يعرفها إلّا الذين نجوا من موت محقق، تتطلب دقّة معلومات عن رحلة عبر الموت نحو الحياة، الدقّة ذاتها هي التي تهبْ الكتابة الحياة من بعد موت.

.3

في المرة التالية كنا قد عزمنا على اختيار "اليخت"، خصوصا بعد تجربة القارب الفاشلة، لما فيها من مخاطر كبيرة، وعديدة، فذهبنا للبحث عن مهرّب آخر، ومن حسن الحظ وجدناه يسكن معنا في الفندق كبقية أقرانه من المهربين، فأغلبهم يتواجدون في زوايا تلك الفنادق السياحية القريبة من نقاط انطلاقهم، وربما هم أجزاء صغيرة من تلك المنظومة المالية الكبيرة المختصة بتنظيم ذلك العبور الكبير إلى "اليونان". طلب منا مبلغا قدره (2500 يورو)، وطلب أن يتمّ تسليم النقود مقدماً، وبلا أية ضمانات، إلا في حالة عدم الرحلة.

.4

في التاسعة صباحاً بعد أن دفعنا فاتورة الفندق تسللنا فرادى وحسب التوجيهات التي رجانا أن نتبعها، والتقينا في المرآب العام للمدينة، بعد نصف ساعة جاء باص كبير، حتى أشار علينا أن نصعده بدون أي تأخير، ثم انطلق بنا إلى خارج المدينة.

لحظنا أنه يدور بنا في شوارعها، ولما سألنا، أجاب بعربية واضحة "اطمئنوا، لنضلل من يتبعنا". ثم توجه إلى الشارع المتوجه إلى خارج المدينة. وبعد أقل من نصف ساعة وصل بنا إلى مكان بجانب بناية شبه مهجورة، وطلب منا النزول، وبعد أن نزلنا جميعا قفل راجعاً، وتركنا لا ندري ماذا نقولُ لبعضنا بعضاً.

وظهر لنا رجل يرتدي قبعة، فتح لنا الباب وطلب منا أن ندخل بسرعة، وهناك تفاجأنا بوجود مجموعة لا تقلّ عن ما نزل من الباص وكانت كلها متوزعة ما بين جلوس ووقوف، كأنها تنتظر قدومنا..

بعدها بقليل، فتحت الباب، ودخل رجل بصحبته رجل مثله يرتدي القبعة نفسها، وقال:

- بعد قليل سوف ننقلكم عبر شاحنة، لنسير بكم مسافة ربع ساعة، أو أكثر بقليل. نرجو منكم أن تتحلوا بالصبر حتى نستطيع أن نصل بكم إلى "اليخت".

أغلبنا كان متحمّساً للتقدم نحو المجهول لخلاص من المعلوم، فالشرطة كالكابوس تطارد الهاربين والمهربين، قبلنا بما هو مقرر لنا صاغرين، خانعين، لا ندري أي مكان ينتظرنا.

.5

بعد نصف ساعة أخرى سمعنا صوت الشاحنة مزمجرا قرب باب البناية، ثم فتح الباب، وإذ بباب الشاحنة التي تواجهنا بخلفيتها، وطلب منا الصعود فورا.

كان يقف عند الباب ثلاثة رجال مسلحين ببنادق آلية، لم أتذكر شيئا سوى أني أردت العدول، والأختباء في زاوية من البناية بدلاً من الرحيل بهذه الطريقة المُذلّة، القسرية.

أغلبنا أخفى شكه، ولكن لم ينطق أحدنا بأية كلمة، نظرنا لبعضنا بعضا وتلاقت أعيننا، ولكننا كنا مغلوبين على أمرنا. لم نكن نعرف ماذا سيحصل لنا، حيث كانت الشاحنة ثلاجة لنقل الألبان، فأدخلنا إلى

فضائها متراصفين، متلاصقين رجالا ونساء. بقينا وقوفاً، على أمل أننا سوف نتحملها كيفما تكون، وتنقضي النصف ساعة، حتى الوصول.

أغلقت علينا باب الثلاجة، وكان عددنا ستين شخصا، وتمّ قبل أن يغلق علينا الباب رصفَ صفّ من صناديق الحليب، وبعد لحظات عمَّ ظلام لم تخترقه إلا إضاءات خافتة، نشرتها الموبايلات الواهنة ولم يسمح لنا بالإضاءة الداخلية، حتى بعد أن انطلقت بنا الشاحنة.

.6

من حسن الحظ أن حاوية التهريب التي حشرونا بها لم تكن قد صُممت بالأصل كبراد حافظ لنقل الحليب ومشتقاته. إنما كانت مجرد حاوية مزوّد سقفها بمكيف هواء مستقل، وعملاق بقيّ يهدر فوقنا، ويسرب الهواء البارد نحو وسطها، حيث كان يضرب على الرؤوس مباشرة، خاصة التي صادف تراصفها في مركز الحاوية.

تواصلت التمتمات من آيات القرآن والإنجيل بمختلف الحناجر، بعضهم بدد خوفه برفع صوته، وكأنما يعلن أن الله معه ومن ثم معنا لأنه كشخص حافظ للآيات فيباركه الرب بحمايته لأنه بيننا، كنت قريباً من سيدتين سوريتين، وأخرى لبنانية لم يتوقف اللبان في فمها، وتلاصقت النساء بالجدار، وكان أغلب الرجال يتحاشون ملامستهم، حيث منَعَنا

الخوف في بداية الأمر حتى من الكلام مع أنفسنا، وكانت أنفاسنا تصطدم بوجوه بعضنا بعضا، رجالا ونساء.

الكل؛ كان ينتظر أن تنتهي تلك الأزمة الخانقة بصبر نافذ، وكان الوقت إستطال أكثر من الوقت الذي تقرر للوصول إذ تجاوز النصف ساعة. لكننا بقينا في داخل الحاوية، نقاوم الملل، والخوف، والمجهول. في البداية كنا صامتين، تدور أعيننا في عيون بعضنا بعضا، وكانما امتزجت رائحة العطور الرخيصة بالعطور النسائية بروائح أخرى مع رائحة الحليب المتعفِّن التي كانت تأتي إلينا من المروحة التي ترشّه علينا.

.7

حدث أن واحدة من النسوة ألقت بكل ما في جوفها على من أمامها، وحدثت همهمة استنكار، تطورت إلى صوت صراخ سرعان ما تحول إلى طرق بعنفّ على جدران الحاوية من الداخل، كان قد مضيَّ علينا أكثر من ساعة، وشاحنة البراد تمشي بنا دون توقف، وكأنما دون أمل.

وكأنما كانت تنقص بعض الرجال الحجة فوجدوها ليروا أين تسير بنا الشاحنة المغلقة، لقد تحول الانتظار الذي ضاعت منه التوقيتات، وبقينا في عالم طائف في المستحيل، فما بقيّ عندنا صبر يجعلنا نطيق ما نحنُ فيه.

بقيت الشاحنة تارة تسير بلا توقف، وتارة أخرى ترجع إلى الخلف، وأحيانا تستدير وتصعد انحناءات حادّة، كان المجهول يلفّنا لفّاً مؤلماً، وتصاعد الهياج إلى هستريا، وأخذ القريبون من الجدار يضربون عليه بقوة أكفهم، حتى أحدثوا فعلاً قوياً لدى السائق، فأوقف الشاحنة ونزل إلينا، من أجل أن يخبرنا.

- "على الجميع التزام الهدوء لأننا سوف نمر قريبا من نقطة تفتيش"،
ثم أضاف بأننا
- "اجتزنا أكثر مراحل الخطر، وبقيت أمامه النقطة الأخيرة".

جعلنا ذلك نشعر ببعض الاطمئنان، وتوقف الأغلب عن ترديد آيات من القرآن، وأغلبها كانت مختلطة بروائح من المشروبات الروحية التي فاحت من البطون الفارغة.

كنّا مرغمين على المرور بتلك الأزمة الرهيبة المظلمة. جميعنا صاغرون لا حيلة لنا، خانعون من أجل التقدم إلى مرحلة أخرى. تبّاً لذلك المشوار الذي امتد بنا أكثر من ثلاث ساعات حتى فرجت علينا الشاحنة بفتح بابها في حلول الظلام الدامس.

كنا مجبرين إلى حدّ السكوت ولم يعلق أي أحد منا بعد أن فتحت أمامنا طاقة باب القدر. البعض منا أعاد ترديد صور من القرآن،

وبقي يعيد شكر الربّ وتكرار التسبيح، والبعض الآخر، بقي منتظراً ما سيأتي به القدر.

.8

لم تبق العلبة اللعينة إلا دقائق معدودات لتفرّ من أمامنا هاربة بسرعة، مطفئة الأضواء حيث لم يتسن لنا رؤيتها بوضوح. ابتعدت وتركتنا في العراء. سلَّمتنا إلى أربعة رجال مسلحين كانوا يرتدون قبعات متماثلة، فأمرونا بزجر أن ننزل الجبل بما نستطيع من سرعة.. حيث ينتظرنا اليخت في الأسفل. ولم نكن إلا فوق قمة جبلية عالية جداً، تراوح ارتفاعها عن سطح البحر أكثر من 300م، (عرفنا ذلك في ما بعد)..

حيث القمر الرومانسي الجميل لم يكشف لنا الطريق جيداً، والذي لم يكن يضيء كما ينبغي، حيث سُحُب الرطوبة بقيت مرتفعة من البحر؛ اذ كانت تشاركنا الأجواء. ولم نستطع أن نشاهد بسببها ما حولنا وما خلفنا أو تحتنا. ظلامٌ دامسٌ أخفى عنّا كلّ التفاصيل.

نزل أحدهم أمامنا وقال "اتبعوني"، بينما بقيّ الثلاثة الآخرون، ينظّمون عملية نزولنا، ولا نعلم ماذا تنتظرنا من صعاب..

مشينا أول الأمر خلفه في طريق منحدرٍ قليلاً، وكلما تقدمنا كان الانحدار يزداد، وكانت تلك الطرق تتقاطع بحافات صخرية حادة، وتتطلب منا القفز إلى أسفل والتثبت تمسكاً بالأحراش الجبلية، حتى ولو كانت خشنة أو شائكة.

كان الرجل صاحب القبعة، يحفظ طريق الانحدار بكل تفاصيله، وكل انحناءة صخرية يتجاوزها أمامنا بخفّة العارف، ويشرح لنا كيفية تجاوزها بين حين وآخر، يوصينا أن نستعين بأغصان الأشجار التي ارتفعت قليلا على جانب الممر الذي كنا نمشي عبره.. انحناءات صغيرة حادة تتطلب أن نمدّ أيدينا كي لا ننزلق سريعاً بفعل الجاذبية ونصطدم بالصخور، ثم يحدث ما لا يُحمَّد عقباه، ومع ذلك كانت الصخور التي تواجهنا لا تترك لنا تفصيلاً من أرجلنا، أو أيدينا إلا وقد جرحته، أحراشٌ قاسيةٌ نبتَت من الصخر ولم تكن رحيمة بنا.

كانت أغصان الشجر يتراوح ملمسها ما بين خشن وناعم، ما بين جارح، وما بين منزلق رطب.. حيث لم يكن الجبل الذي صرّنا ننزل منه أجرد، كانت تصادفنا في طريق النزول المريب السريع العاجل، حقائب، وأفراد من أحذية بين تلك المسافات. تبيّن أنه طريق تعود عليه المهربون، وبعضهم خسر نفسه فيه أو بعضهم لم يستطع أن يمسك بغصن شجرة يخفف بها من سرعة نزوله، فسقط أو جرح.

بقيّ الدليل يشرح لنا بصوت خافت متوتر عن بعض التفاصيل كأنه يتحدث مع نفسه، وكنا نلتقط منه نصائحه المفيدة حرصاً على سلامتنا. مع ذلك كنا ننحدر بخوف شديد، لأن تلك الحافات حادّة، وقاتلة، وقد تعيق أي فرد منا، إن لم يصطدم بها أو "يشحط" عليها قد تسبب له الخدوش المؤلمة، وكنا نضطر أن نمدّ أرجلنا إلى تحت ونبقى ننزلق على ظهورنا، حتى تلامس أقدامنا قطعة يمكن الوقوف عليها. مسافاتٌ حادةٌ، هائلة الانحدار، بعضها كان يزيد على خمسة أمتار، ننزلها زحفّاً على ظهورنا، حتى تَلقى أقدامنا مستندا يوقف انحدارنا، أحيانا ينغرز بعض الحصى الناعم في لحمِ ظهرنا، ولم نشعر في تلك اللحظة بأيّ ألم. ووجدنا هناك العديد من قطع الملابس الممزقة، العديد من الحقائب المتروكة كأنها ستبقى إلى الأبد مُعلّقة ولن تطالها يدّ بشرية.

كأنما لا أمل لنهاية ذلك الكابوس المريب، الذي كان أكثر صعوبة من أي شيء، كأننا سوف لا نطأ أرضا أبدا، من منزلق يسلمنا إلى منزلق.. بعد أن مات فينا في تلك اللحظة أمل البقاء على قيد الحياة، كأنما موت قريب ينتظرنا. لم يكن ثمة أمل ولو ضعيف يصل بنا إلى نهاية الدرب المعتم.. في تلك اللحظات تمنيت أن أعود أدراجي، وأتحمل كل ما يحصل، وما يحدث على هذه التجربة المريرة.

الظلام يلفُّنا لفّاً مريباً، مبتلعاً إيانا بموت ينزلق بشدة انحداره، بفعل الجاذبية متحولاً إلى قوة عنيفة، تقذفنا إلى الصخور القوية، وتريد أن تتهشم منا عظامنا.

كنا نمدُّ أيدنا لبعضنا بعضاً، وكانت الأيدي مبللة، ندية رطبة، تنزلق من بعضها. بعد حين اكتشفنا أن ذلك لم يكن من رطوبة الأغصان الندية، وإنما بسبب الدم الذي نفر منها، حيث كانت أيدينا مُجرّحة، ولم نشعر..

ربما تجاوز نزولنا ساعتين حيث واجهتنا أكثر من حافةٍ حادةٍ، تتطلب الحذر الشديد في وضع القدم في مكان ثابت، ومع كل ذلك الحذر كنا ننزلق ونتلقف أيدي بعضنا بعضا، نتحاشى النزول السريع الذي قد يصل إلى موت محقق. منزلقات صخرية تتزايد خطورتها كلما اقتربنا من اللحظات الأخيرة التي تشبه حافتها سكاكين حادة، مدببة.

.9

وصل بعضنا إلى صخرة نهاية المطاف لتحملنا من فوق إلى باطن مؤخرة اليخت. وكان عيلنا أن ندخل إليه مباشرة.. حيث سقطنا من علوّ قدره أكثر من أربعة أمتار. البعض صادف أن يكون نزوله

مباشرة إلى سطح حيث وضعت لأجله قطعة من فراش مهترئة لتخفف من وطأة سقوطه. ولم يتوقع أن تكون نهاية الكابوس قطعة لينة بدلاً من الصلادة المريرة التي واجهها..

أما البعض الآخر، مثلي فكان انزلاقي قد أوصلني بعيداً عن مكان النزول، ولم أكن قد وصلت وحدي إلى ذلك البعد الذي اضطرني أن أقفز إلى الماء بعدها تلقتني الصخور الناعمة الصغيرة، بإصابات أخرى، لم اكتشفها إلا في ما بعد.

كنا أكثر من أربعة عشر شخصاً، بيننا ثلاث سيدات، وفي الأسفل وجدنا شخصاً من ذوي القبعات ليرشدنا كيفية الصعود إلى اليخت. أما السيدات الثلاث فبقين عالقات، ولم يتشجعنَّ على القفزِ إلى الماءِ فاتصل بزميل له من فريق المهربين، وهذا نزل إليهن، ودفعهن إلى الماء دون مبالاة بالصراخ ودون رجاء.

هممنا على مساعدتهن بالصعود بالرغم من ان ملح البحر يُنغِّل في كلّ الخدوش..

.10

رأينا شخصا آخر تابعاً لفريق التهريب يسحب النازل بسرعة إليه لينزل بعده التالي، وهكذا اكتمل المكان بمجموعنا، حيث وجدنا وجبة سابقة من الهاربين باقية تنتظر لنكتمل، وينطلق بنا اليخت نحو الجزيرة. وصولنا إليه جعلنا نتنفس الصعداء، وكنا نظن بأننا قطعنا أصعب ما في طريقنا من مراحل.

خلّف ذلك تساؤلاً كبيراً في قرارة أنفسنا، أيُ خيالٍ خصب ذلك الذي أبدع في التوافق بين الطبيعة العشوائية ليستفيد منها أفضل استفادة، وينزلنا مباشرة من حافة جبل على هيئة حرف "ل".

وقف تحته اليخت ونزلنا من علوّ إليه. كان ذلك يستحق منا أن نسجل إعجابا بهذا العقل المدبر الخصب الذي استطاع أن يحقق من عبث الطبيعة عملاً منظماً، وينتصر عليها.

.11

زمجرت ماكنة اليخت، وتمّ رفع ثقالتها التي كانت مربوطة بحبال إلى أسفل حافة الجبل، وبعد أن اكتمل عدد النازلين الى 160 شخصاً، انطلق بنا اليخت في سكة الموت.

كان العديد من رفاق الرحلة قد تأذى كثيراً أثناء النزول، خاصة أصحاب الكروش الكبيرة. بعدها نادى فينا منادّ بعربية تميل إلى أن تكون أفغانية تأمرنا أن ننزل جميعا إلى قعر اليخت، لكي لا يرانا المنظار من الفنارات الساحلية، وأضاف "يجب إطفاء الموبايل" لكي لا يرصدنا الرادار، ومنع استخدام الهاتف مهما كلف الأمر حتى لمعرفة المكان بواسطة خرائط "جي بي إس". فنحن لا نريد أن نعود إلى نقطة الصفر عندما تقبض علينا شرطة السواحل التركية، ودون شك ستكون العاقبة أكثر من وخيمة..

.12

حانت اللحظة التي ينطلق فيها اليخت، تلك هي اللحظة الحقيقية التي يتواجه بها الإنسان مع البحر. حيث لم يتعود الإنسان على مدى تاريخه مواجهة البحر دون مواجهة الموت معاً.. فهما مترافقان دوماً.

في تلك اللحظة بدأنا نشعر أننا قد اقتربنا من اللحظة الحاسمة، لحظة يتحرر اليخت من نقطة ارتكازه، ويبتعد ببطء عن تلك الحافة الحرجة من الحياة.

كان الجبل الذي سلّمنا إلى اليخت يبتعد بالبطء نفسه الذي يرجوه الإنسان عندما يواجه منعطفاً حياتياً لا بد منه.

كان الجميع يلزم الصمت إلا بعض الأطفال الذين تواصل بكاؤهم. ذلك البكاء الذي راح يغيب مع استقرار مرافقيهم، وجلوسهم يرقبون ذلك الابتعاد، حيث أخذ البحر يعطي اليخت أول هزّاته، فيهزَّه برفق أول الأمر، كأنه يريد لتلك الطفولة أن تستسلم لإغفاءة التعب، وذلك الشدّ العنيف في النزول من ذلك الجبل الذي سيبقى عصيّاً على النسيان.

في داخل القمرة جلسنا متراصفين أيضا، نفترشُ أرضيتها الفارغة إلا من فراش لمْ يكن يغطيها، ولم يبن منه شيء بقينا نتابع ذلك الابتعاد البطيء، وكأن اليخت الهرم كعجوز لم تسعفه السنون ليوازي لهفتنا

المتصاعدة بأمانيها حيث الابتعاد عن المياه التركية، وكانما نريدها بسرعة عصرنا، حيث عدم تقدم الوقت في تلك اللحظات المبلّلة بماء البحر، وعلى الرغم من الفجر بدأ يلوح لنا كأنه ينبلج علينا من أعماق البحر.

كنا نسمعُ مع هدير البحر زمجرة المحرك الذي يشقُّ عُبّاب الأمواج المختلطة مع رهبة الخوف المقيم. نرجو أن لا تكشفنا تلك النقاط المضيئة الموزعة بانتظام على السواحل التركية. ربما يعني ذلك الاكتشاف، والذي قد يحصل في أية لحظة سوف يكلفنا العودة إلى نقطة الصفر، وربما إلى نقطة قطر مساحتها أقل من الصفر. تلك النقاط هي شرطة خفر السواحل المجهزة بزوارق سريعة جداً، ويمكنها بلمحة أن تحطّ بقدمّها العسكرية وتضعنا في قفص الاحتجاز، كنا نسمع أغلب الشفاه تدمدم في الأعماق، وهي تعيد قراءة سور من القرآن "جعلنا لهم سداً"، وبوساوس قهرية تتحسس هواتفها النقالة، لتتأكد أنها مطفأة وأكثر من مرة.

كنا نريد أن نعبر تلك الموجات المتصافقة التي تهزّ المركب هزّاً، ولم نفكر في الموت الذي يسكن في أعماق البحر. كما كنا نفكر بخلاصنا من تلك اللحظات التي نريدها أن تبعدنا عن تلك السواحل المهيبة، بالرغم من انها لم تتناسب مع سرعة اليخت القصوى (30كم/ساعة)..

كل مرة نقترب من جبل يتصاعد عندنا الخوف ليبلغ أشده، وتتصاعد مع الهمّهمة الواهمة التي يظن فيها الإنسان أن الله الذي يعرفه البشر يسمعه، قريب منه يستجيب الداعي إذا دعاه، يسمع منه التضرّع، والتذلّل، ثم يبعد عنه الشر الذي يخافه.. يكون البشر متناسياً لماهية الله ويحوله من الرب العظيم الجبار إلى ربّ يصغي له وحده، ربّ قريب من تلك الكلمات التي يعيدها الإنسان بأكثر من مرة، تلك الكلمات التي تعلّمها وتعوّد عليها (الإنسان) بأنها الكلمات الوحيدة التي يغفر بها الله خطايا الإنسان، فيحميه، ويعجّل له الإنقاذ، ويؤمن له الحماية من تلك المخاوف.. مشكلة الإنسان أنه أناني حتى مع إلهه الواحد الأحد، الإله الذي يسمع منه وحده، وينصره على كل شيء ما دام هو يقرأ الكلمات، ويبتهل بها، وينسى بأن تلك الكلمات محض وهم، لا يعرفها البحر، ولا يخيفه عندما يزمجر، وليس كمثله أحد، ومن المنطق أن يتحرك العقل، ويتحدى المجهول الذي بات معلوماً..

.13

بعد ذلك أخذ الجبل الذي ودعناه يتوّضح من بعيد، كلما كان اليخت يبتعد متظاهراً كانه يقصد الصيد، ولم يكن متوجهاً بمقدمته إلى سواحل تلك الجزيرة اليونانية، كان يبتعد بتمويه، لتطمئن أعين المراقبة، وأنه لا يحمل أية مخالفة قانونية.

لم تتحرك صوبنا أي دورية، من تلك الدوريات التي كنا قد سمعنا عنها. حيث بدا أن قائد اليخت قد تمرّس في مهنته.. إذ لم يعمل وفق قاعدة "الخط المستقيم هو أقصر الطرق"، بل اتخذ طريقه مقوّساً، مموّها ولم يفضح غايته لمن يتابعه، حتى صارت تلك الأضواء مخفية بغيوم سراب البحر الواسع المتناهي، مياه لا تحدّها إلا مياه، كانت أعيننا تتطلع من خلال الفتحات الصغيرة إلى مدى المجال الفاصل الذي أحاط بنا.

كلما أخذت الأمواج العالية تصفق مقدمة يختنا بقوة فتهزه هزاً مخيفا، ولكنه لم يكن كخوفنا من خفر السواحل، كانت الموجات العالية تضرب بقوة فتجعله يميل عن اتجاهه، فنشعر أن الاتجاهات كلها قد ضاعت، ساعتها تنبهنا إلى ما يسكن تحت يختنا حيث آلاف من الأمتار تعيش فيها عوالم من الحيوات لم تكتشف بعد. لم يسكننا من ذلك الخوف شيء أكثر من خوفنا من العودة. فما أن وصل إلى حدود المياه الإقليمية التركية/ اليونانية حتى زاد من سرعته، ودخل إلى الخط الفاصل.. كأنه استطاع بذلك الإفلات من سلطة خفر السواحل الأتراك، ودخل إلى سلطة خفر السواحل اليونانية. عندها بدأت الأجساد المتخشبة بالخوف، بالتحرك قليلا، والتنفس من هواء البحر، قال أحدهم: في هذه المنطقة تعيش أسماك القرش الخطيرة و"أقسم بأنه شاهد زعنفة لواحدة منها قبل قليل".

ذلك القول أفسد علينا ما بقيّ لدينا من لحظات الفرح، بعد أن نشر فينا مخاوف جديدة من نوع آخر، لم تدع لنا مجالاً للتنعُّم بخلاصنا المرحلي من المجال التركي..

.14

بعد دخول اليخت إلى المياه الإقليمية اليونانية، كنا قد تنفسنا الصعداء، من ذلك الخوف البغيض الذي كنّا تحت رحمته، فراحت الأيدي تصفّق، وراحت الزفرات الحرى تهرب من الصدور، إذ عمّ فرح جديد، ودّعنا خوف العودة إلى تركيا، حيث كانت تلك البلاد التي لم نجد فيها لذّة الاستمتاع بحريتنا، كأنما كان يخنقنا كابوس الرحيل منها، حيث ثقلت علينا مصاريفها، وفنادقها التي استنزّفت منا الكثير من الأموال، وبتنا متحررين من تلك الوساوس البغيضة التي تودّ أن ترجعنا إلى نقطة البداية. وفعلاً لن ينقصنا في تلك اللحظات إلا الصراخ ابتهاجاً بتلك الفسحة النقية من الحرية.

لكن تصاعد البحر في تلك الساعة، ولطمَ اليخت بقوة هزته هزاً، كأنما أراد أن نغير اتجاهنا ونعود أدراجنا، وكان قائد اليخت مستعدا ويقظاً لتلك الضربات القوية، فكلما صفقتنا موجة مرتفعة كان يتابع بوصلته ولا يقبل بتغيير الاتجاه. صرنا أكثر جرأة معه في تحدي

الموت فبدأنا بإخراج أجهزة الموبايل من الأكياس المطاطية التي كنا حشوناها في داخلها وتشغيل نظام الخرائط الجوية لمعرفة المكان والاتجاه، وكأننا نريد ضمان التمسّك بذلك الأمل الذي لم نكن نريده أن يُفقد.

كنا نرنوا للبحر؛ سرت الهمهمات تارة، وتارة أخرى لعب الأولاد برمي علب الكولا الفارغة، ورحنا معهم نلعب برمي قطع فارغة إلى البحر، سرعان ما تطوف وتصبح بعيدة. تلك الطريقة جعلتنا نعرف أن البحر يسمح لنا بعبوره، ويريدنا أن نصل حتى شاطئ الأمان.

بينما كنا نلعب مع الأولاد باغتتنا صرخة مؤكدة أن هناك سمكة قرش ظهرت زعنفتها وهي في طريقها إلينا، غابت تلك المتعة، وحيث لم يخل الموت من أجوائنا.. ثم سمعنا أحد السوريين يقول مداعبا: "القرش أرحم من طائرة ترمي البراميل المتفجرة". شعور اقتراب الموت من الإنسان يجعله بطيء التفكير، لا همّ له سوى كيفية التخلص من الموت.

حضور الموت جعل الركاب يهدأون يكفون عن الضجيج، وراح الأغلب منهم يتحسس الطوافات ومن كان معه أولاده جمعهم، فنجدة الغريق أصعب من أن ينجد الإنسان نفسه، والكل صاح "إخوان لو حدث لا سمح الله مكروه يمكنكم استخدام مصابيح الليزر

للإشارة لخفر سواحل اليونان". وصار الكل يتخيل كيف تتشبع النجادة بالماء وتصير ثقيلة وعبئاً فوق الأعباء.

يبدو لي الآن أنه لم يكن هناك إلا سمكة قرش واحدة اسمها الشيطان البشري الذي يجب مقاومته.. وهو العقل الذي يستخدمه الإنسان ليفتك بأخيه الإنسان، ويجعل البشر خائفين لا ينظرون إلى أمامهم.

وجهة ثانية

(صوتي يضيع ولا تحسّ برجعه، ولقد عهدتك حين أنشد تطرب[4])

.15

بعد إطفاء المحرك سمعنا صوت سلسلة حديدية، أخذت تدور معها البكرة التي لفّ حول محورها، طغى سكون فرض هيبته، فقمع الهمهمة التي كانت بين الركاب، وصار الجميع يصغي، وينظر باتجاه بوابة "اليخت" التي معها تدلّت إلى الأرض سكة عبور المشاة، مطوّحة في الهواء، بقيت كذراع ممدودة ولا تتلقفها أية ذراع.

صار المركب متوقفاً ولم يثبت له أحد من طاقم المركبة مرساته إلى الأرض، ومؤخرته تتحرك تدفع بها موجات صغيرة نحو الشاطئ. حلّ صفاء طيب بعد أن أطفأ المحرك المزمجّر، ولكنه مقلق حيث لم نعلم سببا للتوقف.

بقيت عيوننا مشدودة إلى الصخور البيض البعيدة والقريبة الموزعة بعشوائية كأنها نوارس نائمة على الساحل..

---

[4] غازي القصيبي

صخور ناصعة البياض كأنما اكتسبت لونها من بياض الفجر. صبح جديد أفلت بنا من كابوس سمكة القرش أخذنا نتنفس بملء صدورنا، بزوال "الخيط الأسود بالخيط الأبيض".

تخلل ذلك الفراغ المجهول همهمة ملفتة، مشوشة بالتهنئة بسلامة الوصول مع همهمة التساؤلات: "وماذا بعد".

لم يصدر أمر بالنزول من اليخت، وبات الجميع متحفزاً لتلقي ذلك الأمر. اتضح كل ذلك بعدما، انتبهنا إلى قارب من الشرطة الساحلية يحمل العلم اليوناني قد صفّ قرب مركبنا.

تلك الأثناء، تجمدت الدماء في عروقنا أول الأمر، حيث رهبة القانون هزّتنا، وقطعت عنا الأنفاس. بعدها أطلت منه سيدة برتبة ملازم، لتقول لنا بإنكليزية واضحة "أهلا وسهلا بكم".. استقرت أحوالنا.. تبين لنا بأنها "ضابط" ملحق بفريق من زوارق خفر السواحل، وقد تحلقوا معها حول مركبنا أثناء نزولنا. سألتنا برجاء:

- "أن ننزل بهدوء"..

ثم طلبوا منا برجاء، وإلحاح؛ "أن نرشدهم على قبطان اليخت"..

لم نكن نعلم أين قد اختفى قائد الرحلة، الذي لم نحفظ ملامحه، ولم يكن يسمح لأحد منا بالنهوض أو تغيير مكانه طوال الرحلة، إلا لحاجة الحمام.

ومؤكد أنه ترجّل متنكراً بينا متلاشيا مع المستعدين للنزول، غير مهتم بالمركب الذي سوف تهزّه الأمواج.

فأيقنا أن من سيقودنا إلى المرحلة التالية هي تلك المرأة الملازم، بمساعدتها صعد أحد من الشرطة وألقى المرساة، وتمّ تثبيت المركب.

بعد ذلك مباشرة طلبت من المجموع النزول من المركب إلى الماء، دون خوف والتوجه مشيّا إلى اليابسة.

لامسنا نسيم ساحل جزيرة "**كوس**"، كأننا لم نكن مصدقين بأنها تلك جزيرة الرحمة من سواحل الرعب التركية. وراح الجميع يستعد للمغادرة إليها.

بقينا نحن الخمسة قريبين من بعضنا، أحدنا قريب من الآخر، مصلحة مشتركة كأنما شعور المساندة ما نحتاج إليه من بعض، رغم أننا كنا بين المجموع. الكائن الذي يدعى بالإنسان، مليئ بالمخاوف والظنون.. كأنه غير مصدق ما يحدث له.. يتحمل تلك المشقّة من أجل أان يحرر نفسه مما تواصل عليه من كابوس مرير يرجو الصحو منه..

ليتنا نودع تلك النقائض المستقرة في أعماقنا كما ودعنا تلك العلب الصغيرة التي شربنا محتوياتها ورميناها خلفنا إلى عمق البحر..

كنت أعيد على نفسي السؤال: هل هذه ذاتها هي "اليونان" حقاً.. البلاد التي شعَّتْ منها أول الحضارات العقلية.. أهذه الصخور البيض ذاتها التي قرأت عنها في تلك الكتب، ذاتها أمامي أم هذا حلم يتحرك العقل فيه بحيوية، وحسب..

ليس لنا سوى حلم الوصول، حلم اسمه كرامة العيش. كأنما الفجر ذاته الذي لم يستطع أن يمنحني إغفاءة، وأنا أكتب على شاشة الموبايل تلك الأسطر بعجالة حيث أتركها بدون أن أُكمل جملتها الخبرية، وأسهمُ بعيدا إلى تلك السماء الملتقية مع البحر، أراهما تتداخلان معاً حيث سواد الماء قد تحول تدريجيا إلى لون السماء، هل هما دوما هكذا يلتقيان ويبادلان الألوان عبر كل ذاك الامتداد...

كنا نسير فرادى وجماعات تحيط بنا مجموعة صغيرة من قوات خفر السواحل. لم يدقق أحد معنا ولم تطلب منا سوى النظام، لأجل أن يسهل التعامل معنا، وما أن وقفنا جانب بعضنا البعض، صورت وجوهنا بكاميرات كانت محمولة معهم.. واحدا تلو الآخر، دون تدوين أية بيانات عنا، سألونا عن قبطان اليخت، ولم يدلهم اليه احد..

تبين لنا أننا نزلنا عند نقطة تبعد حوالي 7 كم عن مخفر الشرطة، ولا توجد أية وسيلة نقل تصل بنا إلى المخفر، الذي سنسجل فيه أسماءنا، ونحصل منه على ورقة أولية لتؤهلنا بالحصول على "طرد

رسمي" تسمح لنا بالبقاء أحرارا على الأرض اليونانية، وحتى وصولنا إلى خارج حدودها.. بعض المهاجرين توضأوا بماء البحر المالح وصلوا صلوات عدة بالحمد والشكر لله الذي وقف معهم، وساعدهم في عبور تلك المحنة الفجّة.

أغلبنا أخذته إغفاءة، وجدت نفسي مستلقيا على إحدى الصخور في الجهة المطلة إلى البحر، لم أنتبه إلا للبرد الذي غمرني فجأة، كأني بقيت مبللا بالأسى. أنا في حلم، جمال لا يصدق في زمن الكوابيس المتناسلة. لم أنتبه في حلمي جيدا إلى تلك المناظر الخلابة الموجودة على تلك الجزيرة الضائعة في البحر... صار رذاذه أكثر نعومة وصرنا نتنفس بعمق من هواء جديد، قد لامس وجوهنا. ذلك الاستقرار جعل البعض منكبين على أجهزتهم المحمولة، ودون أن يرفعوا رؤوسهم، لا يتطلعون إلى اليابسة، وكأنها يابسة غير حقيقية..

أردت أن أعبر عن بهجتي، قلت:

- هل بلد "نيكوس كازنتزاكي[4]" الذي أعاد كتابة أشعار "هوميروس[5]"؟..

قال لي أحدهم: "يا عم ليس هذا وقتاً مناسبا للخطرفة"..

ثم ضحكت معه وقلتُ فعلاً انها خطرفة يأس.

كان علينا مواصلة السير إلى ذلك المخفر البعيد، كنا نمرّ بطريق يتصاعد تدريجيا، وما أن وصلنا إليه حتى صار لون البحر يفقد لونه العميق الأسود ويتغير إلى لون زرقة من لون السماء.

بقيَّ جمعنا السائر منقادا إلى نقطة مقررة له، وليس له ثمة من يسنده. اليونانيون يدعمون فرحنا ويقدمون إلينا في طريقنا إلى المخفر سلالاً من فاكهة متنوعة، وبعضهم وضع أمامنا أكياسا تحوي على قطع من الخبز الحار. مسيرنا بلا تعب، وبلا توقف، تستقبله الابتسامات، والتلويحات المبتهجة تفرش مساحتها كل الوجوه، بالابتسام والسلام مشفوعة بألف صلاة من أجلنا..

كنا نسير حتى تجاوزنا المزارع، التي كان فلاحوها يعملون بدأب، ونشاط كأنهم سبقونا إلى أعمالهم. بعد أقل من ساعتي مسير، حيث الرؤية انجلت وصار الصباح ينشر رائحة طيبة. لم نرد أن نستريح من المشي إذ تبين أمامنا مخفر البوليس، مستقرا على تلة عالية، تسنى رؤيته من بعيد، وصارت همّتنا أكثر من أجل الوصول، ونساعد الجميع في حمل الأطفال أو الأغراض، وكبار السن على الوصول..

اقتربنا من المخفر حتى تبيّن أنه محاط بحديقة واسعة، وقد انتشرت عليها مجموعة أكبر من مجموعتنا، ينتظرون دورهم، في التسجيل

والحصول على "ورقة الطرد"، رأيناهم تجمعوا مفترشين الأرض، وغالبيتهم ضربوا طوقاً حول المكان، كمقيمين في المكان بشكل شبه دائم.

كانت وسط المدينة على مبعدة من الحديقة الواسعة، منظمة، ومليئة بتماثيل رخامية دقيقة التفاصيل. كما لم يخل أي شارع من شوارعها من الفنادق السياحية بواجهات جذابة. كنا نخترق مدينة منظمة، جميع أركانها تحمل علامات استدلال مرورية، عالم متحضر.

تماثيل عديدة، تنطق سحراً وبهجة، رجال ونساء عراة في أوضاع مختلفة، جنود وقساوسة، فرسان وعمال بناء.. رجل وامرأة متعانقان تعمّد البعض من الشبان أن يعلق قائلا: "عادي"، وسمعنا ضحكات غامزة من البعض..

اقترابنا من المخفر، جعلنا نشمّ من بين ذلك التجمهر الحافل روائح مزيجه، عكرت نسيم الصباح، كأنها غمّة عابرة. ولم ندر انهم قد عششوا في المكان حول المخفر، وكأنما قد سكنوه.

فيما بعد قد عرفنا أن أولئك، جميعا من مختلف الجنسيات، وأغلبهم من الذين لا يقبلون في سكن الفنادق السياحية.. وجعلوا من محيط الحديقة.. مكانا سكنوا فيه، بعد أن أحضروا معهم خيمات سفرية للنوم، وجعلوا من ذلك العراء الأخضر حمامات، حيث فاحت منها روائح كنيف لا تطاق.

بحثنا عن مكان مناسب قريب نستريح فيه، خصوصا بعد أن شاهدنا الأعداد الغفيرة من المهاجرين حول المخفر. أن نجد لنا غرفة في فندق، بسعر مناسب، قررنا نحن الخمسة أن نشترك في الدفع، بعد أن علمنا أن الأوراق المطلوبة منا قد تتأخر إلى يومين أو اكثر. أن نستريح قبل أن نواجه المعلوم المجهول..

.16

وجدنا غرفة بخمسة أسرة، في شارع يبعد عن حدائق المخفر مسافة لا تزيد عن الميل.

وما أن دخلنا مع حقائبنا، أخذ كل منا حماماً.. تأكدنا من قفل الباب جيداً حتى تمكنت منا إغفاءة عميقة، كأنها أطول نومة في تاريخنا الشخصي، حيث هدّنا الإرهاق المستمر منذ يومين متتالين.

أثناء النوم هاجمتنا أوجاعنا حيث كأننا كنا مصابين لم ننتبه إلى أنفسنا.. إلا بعد الاستيقاظ.. إذ دام أكثر من عشرة ساعات متواصلة، كأنما كانت أجسادنا مفككة، نعاني مما أصابنا من نزول الجبل، ولم نشعر بذلك بعد أن منعنا الشدّ النفسي المتواصل من الإحساس بتلك الإصابات لم يبق أحد منا إلا واكتشف خدشاً، أو جرحاً في أنحاء جسده. لم نشعر بها طوال رحلة البحر..

كنا نشعر بجوع شديد. ماذا يمكننا عمله سوى البحث عن أكل في تلك الأسواق وتلك المحلات النظيفة.. قررنا الخروج سويا، وكانت أول فرصة أمامنا أن وجدنا مطعما صغيراً يضع طاولاته على الرصيف، وطلبنا مما يبيع، وقدم لنا سندويشات لحمة كانت مدعمة بقليل من الخضار، ورحنا نأكل.. قال أحد الأصحاب متسائلا عما نأكله. فلم يكن لحماً قد ألفناه، ولكنه بالرغم من غرابته إلا أنه كان طيّباً.. أكلنا منه عدة قطع حتى شبعنا، وتناولنا معها "الكولا".. ولم ننتبه إلا بعد أن دفعنا الحساب هناك صورة مرسوم عليها "خنزير".. لم نكن قد رأيناها، الصورة بينت نوع اللحم الذي كنا التهمناه.. تبادلنا النظرات فيما بيننا، حتى افتعل أحدهم الاسترجاع، ولم يخرج شيء من معدته. كانت محاولة منه أن يعلن بأن ما التهمه من لحم هو محرم، وعليه استخراجه.

.17

كل مكان نصله، تحتفي فينا الناس. صرنا نحدق جيدا في المناظر الطبيعية التي حولنا. كانت أعيننا مفرغة من الاستمتاع بالمنظر الجميل المليء بالجميلات، كنا نقول لأنفسنا حقا لا قيمة لحديقة دون ورود، ولا قيمة لمكان دون أن تأهله الإنسانية.. كنا ننظر إلى ما حولنا، ونتفرس في عالم جديد، وكأننا عدنا إلى الحياة من جديد.. حيث لم نكن

في "تركيا" نتفرس في الجمال كما بدأت تعطيه لنا اليونان كأنما خلقنا للتوّ، وقد انفتح العالم.. صارت ثمة آمال كبار تنهض من ركامها أن نكون كالبشر الأحقاء.. ولكن بعض منا لا يهدأ فيه ذلك "الفايروس" الذي أسميناه بال"تخلف".. إنه فايروس انقطاع عن تواصل الحضارة، تعيد طبخه تلك المسميات المعششة في عقل الإنسان.. وتجعله متحرراً، يتنفس في عمق الزهو الحضاري..

أغلب المطاعم الراقية كانت مطلة على بحر "إيجه" المحيط لجزيرة "كوس".. تناولنا فيها وجبات طعامنا الهانئة.. مع الإصغاء لتلك الموجات التي صارت أكثر ألفة. كأنما ليست تلك موجات التي كنا نسمعها بهدير وحشي، وإنما موجات سلام عاطر بالرذاذ البحري المنعش..

حدث أمامنا: ثارت احدى العاملات الجميلات في مطعم، ولم يكن بسبب تحرش جنسي أو ما شابه، بالرغم من كونها كانت في غاية الأناقة تنورة قصيرة، وبشرة برونزية، ومفرق منزلق إلى نهدين لامعين بأنوثة مشوقة.

ولكن بسبب أحد المهاجرين فقد أخفى بين ملابسه كيس أرغفة دون موافقتها، ولو كان قد طلب منها لأعطته بدلا من الواحد إثنين.. في تلك الأثناء انتبهنا في زاوية أخرى من المطعم كان آلة بيانو يعزف عليها رجل أشيب لم يتوقف عن عزفه، كأنه بقي يقول حتى

الإصغاء إلى الموسيقى يحتاج إلى قليل من التحضر. كانت علب الفاكهة المجانية تصل إلى موائد الجميع، فاكهة طازجة.. منوعة، ولا تقل وزن العلبة عن النصف كيلوغرام.. كلها من بساتين الجزيرة، التي احتفت بالمهاجرين.. أكثر من احتفائها بالسائحين..

.18

في اليوم السابع من بقائنا، أكمل لنا مخفر الشرطة الاجراءات الأولية للحصول على "وثيقة الطرد" بعد أن أبلغونا أن لجنة من الصليب الأحمر حاضرة لتنظيم سفرتنا من أجل توصلينا بالباصات مجانا إلى مرسى الجزيرة، ومن هناك تذهب بنا بغرض نقلنا إلى العاصمة أثينا..

بعضنا كان يقول مستهجنا: - "اليونان تيسر أمرنا حتى مغادرتها".

كنا نشاهد المهاجرين يسيئون استخدام حياتهم، بتصرفات الإهمال، والعبث، واللامسوؤلية. يعرضون بها أنفسهم إلى الإزدراء، والإذلال.. أشياء راسخة لا يمكن إزالتها من العقل بسهولة، انعكست تلك الفوارق على موظفي المخفر، صعب التعامل مع تلك بعض العقول المتحجرة، بفارقهم الحضاري. كيف لهم أن يتعلموا أن ذلك الفارق فاصل بين بشر ونوع آخر من البشر.

كنا نشاهد اضطراب التراكم في المكان الواحد، وقد صار ثقلاً يزاحم السائحين، وبدأ التذمر من تصرفات المهاجرين التي لا تعبأ بنظامهم على ظهر جزيرتهم البيضاء.. مواويل الزحام يثقل الهواء بروائح زنخة تطغي على نسائم البحر الطيبة. بقينا نسمعه يئن في ليل ثقيل وموجع، كأنه ليل من عدم.

.19

بعد أربعة أيام وصلت إلى الميناء الباخرة التي خصصت لأجل أن تحملنا إلى العاصمة "أثينا" ونكمل في العاصمة بقية إجراءات تصديق وثيقة دخول إلى اليونان بشكل غير شرعي، ومن ثم الخروج الآمن منها بشكل شرعي..

كانت الأعداد منا تتزايد، في كل يوم أكثر من اليوم السابق. بعدها أخبرونا أن مجموعة من الحافلات حضرت لذلك الأمر. ونقلنا بها إلى الميناء. قال أحدهم "مسيرون لا مخيرون"، كخفة حلم نزلنا بعجالة. ثم أصبحنا نصعد سلمها العملاق بعد أن دفع كل منا (60 يورو) ثمن البطاقة إلى تلك الباخرة الكبيرة، (منظمة الصليب الأحمر دفعت نفقات الرحلة، ولكن إدارة الميناء أصرت على أن ندفع)..

الأغلب منا كان يدفع ما يطلب منا، دون مفاصلة، رغبة بالوصول إلى نقطة الخلاص النهائية، (أصحاب القبعات ذاتهم كانوا بين طاقمها). ذاتها، أغلبها حلقت لحاها في أول فرصة سنحت، وبانت البشرة التي لم تحرقها الشمس عن بقية ذلك الوجه الكالح، والعابس (يقينا؛ ليسوا سوى مرتزقة)..

بعضنا كان يرى ذلك المركب العملاق أول مرة كأنما بناية بعدة طوابق تستعد لأن تعوم في البحر بثبات مستقر.. أعدت لتحمل الأعداد الكبيرة من المهاجرين..

كانت الإشاعة تنتشر سريعا مثل نار في هشيم، ما أن تدخل إلى إذن إنسان منا حتى لا تطيق أن تنطلق من شفتيه، ويكررها بلا أية تفكير، أو تدوير. سمعنا ذلك في الساعة التاسعة ليلاً. بأن "مقدونيا" إحدى محطاتنا بدأت تستعد لغلق حدودها بوجه المهاجرين.

كانت الأضواء تشع مهرجانا من كل أرجائها، سكان جزيرة "كوس" خرجوا لوداعنا .. قال "أحمد"

ليتأكدوا من أننا قد بدأنا نغادر..

وأضاف ضاحكاً: حملوا لنا باقات ورد، كأنما كانوا يودعون أزمة ما قد عبرت، وآن أوان الاستراحة منها..

منبه الباخرة العظيم، يقول بتنا مستعدين للانطلاق نحو "أثينا"، بغية "وثيقة الطرد من اليونان"، تبادلت المفردات المعاني، كأنما صارت مفردة "الطرد" مفردة حسنة ونريد بركاتها.. تزاحمت بنا الأقدام إلى الباخرة.

كانت تشبه من الداخل فندقا عظيما وفخما، ممراتها نظيفة، وسجادها هوليودي أحمر.. طوابق عدة لها مصاعد كهربائية، مساحات مليئة بغرف واسعة، كأنما ليست مخصصة لتمخر عباب البحر.. كانت تحوي على قاعات كبيرة للمؤتمرات والأوبرا والسينما، وأفرغت بشكل مؤقت من محتوياتها لتكفينا. ممرات تفضي إلى ممرات، لم تخل منها كاميرات المراقبة.. نظرنا من سياجها الأعلى إلى ساحل الجزيرة بدا البحر رائقا متعانقا مع رصيف الميناء..

"أخذت الجزيرة تلوح لنا تريد وداعنا العاجل"..

لم يتوقف قدوم توافد المهاجرين إليها، وفي كل لحظة ينطلق البوق من مكبرات الصوت يعلن بأن الباخرة مستعدة للمغادرة.

تنفسنا لأخذ نفس آخر جديد، محركاتها خرساء.. اتخذت أغلب العوائل مكانا لها في الغرف أما الآخرون استقروا قريبين من الحمامات العامة، كانت مساحة فارهه على السجاد الأحمر. فافترشنا حقائبنا، وتمددنا حيث الليل قد حل بنا، ومن ثم قد نغفو على أمل..

قبل الانطلاق صعدت طبيبة من الصليب الأحمر، بصحبة طفلة سورية في الخامسة من عمرها، اسمها "سالي" قد وجدت لوحدها، لم يكن أحد من أهلها معها، عسى أن تحصل على جواب حول من يعرف أو من يكون أهلها. أو من يزودها معلومات عنها.. لم يتقدم أحد نحوها.

دارت الطبيبة أغلب طوابق الباخرة جميعها، وكأنها تتوسل إلى الجميع أن يبلغوها ما تحتاج إليه عن أهل هذه البنت الجميلة، أو تتعرف إلى أحد يعرفها، فاضطرت أن تقول للجميع بإنكليزية واضحة جدا (أرجو منكم أن تصوروها، وتنشروا صورها على صفحاتكم الاجتماعية، وسوف أبقيها بمسؤوليتي حتى يتصل بها أهلها)..

.20

في الصباح تبين لنا أن الباخرة، بقيت في زاوية من جزيرة "كوس"، ولم نستطع أن نكتشف ذلك في جو مضبب كله، غائم بالدخان. رغم أننا اعتمدنا على أجهزة الموبايل، وتيقنا أن الباخرة، لم تغادر بنا الساحل.

.21

بعد ثلاث ساعات علمنا من الهواتف المحمولة بأننا نتوجه عبر المسار البحري المتوجه إلى العاصمة.. لكنها برغم ذلك أخذت تتوقف بنا قرب تلك الجزر الصغيرة لحمل مجموعات أخرى من المهاجرين. ولم تتوجه الباخرة إلى "أثينا"، كما كنا نرتجي.. عاودتنا الرائحة القذرة التي أخذت تفوح من الحمامات. أخذت الأجواء تتداخل مع أشياء أخرى.

.22

بعد ساعتين علمنا أن جمهورية "مقدونيا" أغلقت حدودها في وجه المهاجرين. معللة أن ذلك يشكل أزمة حقيقية ستواجه الجميع. تنامت ضجة من المخاوف، بدأت تتصل ببعضها..

.23

بعد أن امتلأت الباخرة بركاب إضافيين من جزيرة "كوسمبوس"، تنبهت إلى "أحمد"كان يوشوشني قائلا:

- لمحت امرأة كانت في عقدها الأربعين.. ما ميزها طبقة صوتها الذي لم أنسه أبداً، كأنني أعرفها. هي عراقية، ولم تكن في مستوى واضح من الجمال.. لفتتني، وبقيت أحاول التذكر، ولم افلح..

.24

المرة الرابعة تغير الباخرة مسارها إلى غير "أثينا"، فتصاعد لغط ثائر، غير مستقر، وصار الكل يهتف وصارت كأنها تظاهرة حماسية تحتاج إلى خطيب، وقائد.. من بعد اختنقت الحمامات بالأوساخ، صارت الرائحة تفوح من ملابس المهاجرين، حتى يصرخوا كما يصرخ المتظاهرون ثورة على قبطانها..

سأل أحدهم "أحمد" عن عدم مشاركته حفلة التظاهر على "القبطان" فأجابهم بحلاوة روح؛ إنه يتذكر نكتة عراقية تقول.. (اتفق أربعة على سرقة سيارة، قال الأول أنا سأكسر لكم زجاج النافذة، وقال الثاني أنا سوف أكسر جوزة التشغيل وأشغلها لكم، والثالث قال أنا سأقودها، وأما الرابع الذي بقي ساكتا قال أما أنا لم تبق لي سوى مهمة تبليغ الشرطة عنكم، وتصاعدت عاصفة الضحك)..

في تلك الغمرة تصاعد التصايح مما جعل قبطان الباخرة ينتبه إلى أنه في مأزق حقيقي وقال من خلال مكبرات الصوت المنتشرة في أركان الطوابق، (الرجاء التزام الهدوء)..

بقينا نراقب كيف أخذت سورة الغضب بالمهاجرين القابلين سريعا على التحريض، القابلين على الاستجابة.. سوريون وعراقيون..

يتصاعد الصوت منهم.. في تلك اللحظات أخذت الأصوات تخفت تدريجيا، وصار الاتجاه المستقيم إلى الخارج.

.25

طلّ علينا رصيف ما بعد ثلاث وثلاثين ساعة.. وجدنا الميناء يعج بطيور البحر، وتعانق الغيوم بطيرانها، وتنزل سربا يتبع سربا، سابحة فيه.. كان اليوم جديداً لكن الهواء الجديد لم يقدر أن يزيح تلك العاطفة التي بقيت متسللة بين أغشيتنا.. حيث لم تنقضِ ساعاتنا هانئة حيث التأخير لم يعد في صالحنا..

كنا على يقن أننا كنا سنرى بأن المعالم الحضرية التي نراها في أثينا صاحبة أجمل رصيف في العالم، تفوق أي مكان من العالم، ولكننا كنا في حالة خوف متواتر أن يكون الطريق مغلقا أمامنا، قبل أن نغادرها إلى دولة أخرى..

.26

قالت إحدى السوريات ل"أحمد"..

ذاك الرجل قاتل أنصحك أن تحذر منه.

وجهة ثالثة

(فما هو بالواشي على مذهب الهوى ولا هو في شَرعِ الوداد مُرِيب [5])

.27

الباخرة **"آتوس"** باتت تحملنا برفق أول الأمر، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، لم يكن بسبب هياج البحر، ولكن بسبب هياج ما فوقها.. حيث كان سطحها تجتمع فيه كل نقائص تلك التفاصيل للأزمة العالمية، المباغته. تفاصيل صادمة تثير في أي كاتب الرغبة لكتابة مهمة تدهش كل عشاق ذلك الفن العظيم. الباخرة تمخر عباب البحر حاملة مختلف آيات التناقض، والاختلاف. باتت متأرجحة كأنما سكرى بذلك المزيج العظيم من الناس، الذي يحركه سرّ الأسرار، المتماهي معه أمل أن يبقى الأمان إلى نهاية هذه الحياة، وأن لا تدمره الأيدي الخفيّة العابثة.

اللحظات الأخيرة التي كنا فيها ونحن على سطحها كانت من أثقل اللحظات التي قلل فيها الإنسان من قيمته، وكشف زيف ما يدعي، وعن أغلب مكامن ضعفه.

---

[5] أحمد شوقي

تفاقم بنا الحرج ليكشف عن كل ما غطينا بادعاءات ليست من رصيدنا. سوف يتبين ذلك أكثر حتى بعد أن تلفظنا "آتوس" بضجر إلى أحد الموانئ.

أعلنت مكبرات الصوت الترحيب. لم نفهم شيئًا بسبب الأصوات العالية التي باتت تصدر عن ركابها المهاجرين، القلق، أو عدم الفهم، جعل منهم مبكرين لأجل النزول مع أعراضهم، لم يضع أي منهم أغراضه في مكان الأعراض، بل كان الكل يحضن حمله، وراح ينزلون إلى الطابق الأول، وبات الازدحام أكثر سوداوية، كأنما بات الأوكسجين أخذ ينفد، ولم يكن أحد له السلطة أن يجعل الجميع ينتظموا لنزول طبيعي.

- "هرج خانق".

باتت مكبرات الصوت تقول كلاماً غير معلوم، ومختلطاً مع الأصوات العالية، المتشنجة، كأنما ثمة من يشعل ذلك الانفعال، ويحركه باتجاه يبغي منه غاية ليست في صالحنا. لكن أحد الشجعان فهم تلك اللعبة، وصعد إلى غرفة القيادة وقال بواسطة "المكرفون" العام.. بكل ثقة، مرتجلا كلاما على مسؤوليته، سمعه من سمعه، جعل الجميع يأخذوه مأخذ الجد.

- "انتباه لدينا أوامر من الحكومة اليونانية بإعادتكم إلى سواحل تركيا إن لم تمتثلوا إلى القوانين التي تعمل وفقها هذه الباخرة"..

كأنما أعاد المياه إلى مجاريها. ذلك الخوف الجديد، كان مفيداً:

- "كذبة تنطقنا ومثلها تخرسنا".

استقر ذلك الهدوء تدريجيا، وتقرر عندها النزول، ولكن ذلك التدافع لم يعبر سدى، بل استغله بعض اللصوص ليمدوا أيدهم داخل الجيوب، وخصوصا فتح بالموسى حقائب النساء ليحصدوا غاياتهم..

صار النزول من الباخرة اليونانية التي تغير صنفها من الدرجة الأولى إلى حاوية أزبال لن تكفي مياه بحار الأرض ولا أمطار السموات لغسلها من الأوساخ التي تركها فيها الزاحفون نحو الحياة الجديدة. تحولت "آتوس" إلى قبر طائف على سطح الماء، يعطّ بالنتانة. أمنية بين الأمنيات التي نطلبها من الرب أن يرزقنا، باستجابة، ونخلص منها عاجلا..

كانت الأخبار تقول لنا بأن الجموع الغفيرة من المهاجرين، مازالت تتدفق عبر البحر، وكأن العراقيين والسوريين أقبلوا على نفير عام بالهجرة، ومغادرة أرضهم. بمباركة قرار عالمي خفي، ولابد من ذلك

المدّ البشري الكثيف التمكن من العبور، لا يقل خطورة عن إعصار بحري عبر تركيا، اليونان، عابرا إلى مقدونيا، ومنها إلى الدول التي سوف تمنحه اللجوء الآمن. كان زحاما غير معتاد، أشبه بموجة جراد كاسح مهدد بالخطر الماحق.. حاملا معه الخوف والتوجس، على كل مفردات حياتهم المدنية، وأربكها. بعث على القلق..

.28

الطفلة التي بقيت في ذمة الطبيبة اليونانية، يذكرني بها كل طفل تركه أبواه يلعب دون متابعة في باحة الممرات المزدحمة. .الطفلة ذاتها كانت لها ضفيرتان طويلتان، وبقي بجذل تنوسان على كتفيها، وعينيها تشع براءة. غابت تلك الصورة حضرت بديلة صورة ولدي "مناف"، بات اليوم في عمرها. لم يكن ذلك الطفل من صلبي، ولكن قلبي بقي معه، كما لو أكثر من ابن أنجبته، ربما قدره أن يمرّ بحياتنا أنا وزوجتي، ملاك في غاية الجمال، لم نتعود عليه بقدر ما عشقناه، صرنا له أكثر من والديه، وجده وجدته.. اهتمامنا به، جعله يميل إلينا أكثر من أي أحد من أقربائه، فصرنا أكثر صلة به من صلة رحمه، بسمته في مخيلتي تفوق أجمل بسمة يلقاها الإنسان من حبيب. ذلك الولد صار ابنا لنا بفضل موقع شقتنا التي توسطت شقة والديه، وشقة جده.. لم

يغادرنا إلا للنوم، أو لحاجة أمه أن تذهب به إلى أهليها، عدة أيام كل ثلاثة أشهر.. تكون تلك الأيام دونه وهو بعيد عنا من أطول الأيام. نفكر فيه أكثر من كل كائنات العالم، ونشأ "منوفي" بيننا منذ أن كان عمره ثلاثة أشهر، أو أكثر بقليل، وصار بعدها كل يوم يشير إلينا بيده، وتلقائيا صار يجبرهم على أن يبقى بيننا في شقتنا، وكأن مكانه الذي لا يعرف غيره مكانه، بات لا أحد يستطيع أن يقنعه بشتى الوسائل على أن يتركنا، ويوم بعد يوم وشهر بعد شهر وعام بعد عام بات "منوفي" يسأله سائل عن والديه ليشير إلينا. كنا نختار له ألعابه، ونختار له ما يأكله ويشربه.

أيام كنت في تركيا بعثت لي زوجتي برسالة صورية عنه "منوفي" الذي بات في غيابنا يمرّ على باب شقتنا، ويطرق الباب (بابا... ماما)، ظنّنا منه أننا في الداخل ولا نفتح له الباب، فكان يبكي بكاءا مريرا، عسى أن يثير عطفنا عليه، ونفتح له الباب كي يدخل مستأنفاً حياته.

.29

لم يكن النزول من "آتوس" سهلا وإنما بشقّ الأنفس. صفت لنا باصات كبيرة ومكيفة، بجانب سلم النزول، قالوا بأنها سوف تأخذنا من

الميناء إلى الحدود مباشرة، هناك سوف يسلموننا وثائق الطرد اليونانية المصدقة، بعد ذلك سوف يحملوننا إلى الحدود.

وفي داخل الحافلة وجدنا على كل مقعد مغلفا يحوي أربع "سندويجات" مغلفة مع علب عصير فاخر. وتوفر في وسط الباص براد لماء الشرب، وعلبة من أقداح ورقية. كان ممرها مراقبا بكامرتين مربوطتين بجهاز يرسل الصور مباشرة إلى مكان ما. انطلقنا في الشوارع كل عشرة حافلات سويا بعد الامتلاء، كان ذلك الفاصل أشبه بمتنفس للاستراحة. بعد أن أحس الجميع بالاستقرار، صعدت إلينا مجموعة من الشرطة، بزي رسمي أنيق، أبصمونا ونحن في مقاعدنا وصوروا حدقات أعيننا جيدا. وسلموا لكل منا قطعة ورق مطبوعة عليها "كودا"، نصحونا الاحتفاظ بها لأنها سوف تسهل علينا عملية استلام وثيقة الطرد نهائيا بصفة زائر غير مرغوب به، بالرغم من أن هناك ثمة تلويحات لأيدي خجولة، كأنما تلوح لنا كأنها ترجونا أن لا نطيل البقاء عندهم، وعلى الرغم من أنها فرصة سياحية كبيرة، جعلت من بعض المهاجرين يفرغون مدخرات في أسواقهم، وفنادقهم، لكنهم يروّجون لنا المرور الآمن، حالة طارئة. كانت معاناة كبيرة للعاملين على مهمة ذلك الأمر، حيث أفرغوا "آتوس" من ذلك الكم البشري، بعناية فائقة، باستلام تسليم حذر، كل نازل يسلم له قنينة ماء، وابتسامات عريضة من حسناوات يحملن الورد، باحتفال كرنفالي.

ثم انطلقت بنا الباصات المكيفة، مدة نصف ساعة.. ثم توقفت عند نهاية مشوارها عند بداية حدود "مقدونيا"، لم يسمح لأحد بالنزول، إلا بأمر الشرطة بالتنسيق مع منظمة الصليب الأحمر..

بوابة حديثة الإنشاء، يتطلب المرور عبرها أن نضع جميع ما نحمله على سيارة، لكي تمر بالحقائب على جهاز الفحص "السونار"، كذلك الأشخاص تمّ تمريرهم على جهاز خاص هو الآخر، لغرض التفتيش الدقيق، لم يكن يسمح لأحد ما لم يضع جميع محتويات جيوبه في سلة ثم يستلمها من الجهة الثانية، كما لم يسمحوا لأي شخص لم يحمل شهادة الطرد الرسمية، بدقة متناهية..

.30

جلست أستمع إليها، ومن ثم بعد ذلك دونت سريعا كل ما سمعت منها على شاشة موبيلي وقبل أن أفقد انفعالي، لأنها فرصة جاءتني كالوحي يصعب علي ضياعها، أن أعيدها إلى الوجود، رحت أكتب دون مراجعة، أو توقف،..

(الأم)

اخترت؛ مواجهة البحر على موت محقق سوف يضع بصمته علي في غفلة. ولا خيار سواه. كان علي أن أحرر كياني بعد أن اتسعت عليه الممنوعات، والموبقات..

البقاء انتحار، وعبور البحر، انتحار أيضاً.. لكن الفرق بين الانتحارين، الأول هو موت محقق بين أيدي مخالب لا أعرف متى ستنقض علي، وتفترسني إرباً إربا.. أما الثاني ففيه احتمال التحرر من الموتين..

أقفلت من خلفي باباً، وكل شيء.. إذ أغلقت "هاتفي المحمول"، ومن بعد أن انتزعت منه شريحته، وحرقتها. ثم عملت وكالة قانونية للتحكم ببيع ما امتلك باسم صديقتي والتي كانت شريكتي في السكن "زهراء". لم أخبرها بما عزمت عليه بعد أن أخفيت لها – الورقة- في مكان تعودنا أن نخفي فيه وثائقنا الرسمية[6].

نويت الخيار، ولا أظنني أحتمل التردد أو التأخير.. ثم مشيت بعد أن تركت لها رسالة تطمئنها "أنني لم أبع العقار الذي تسكنه" ولكني أكدت لها أي قد قررت مواجهة الرذاذ العابق بالملح وبالوجع.. علي أن أفتح بابا أتنفس منه..

---

[6] الرباعية الشهيرة من بطاقة السكن وهوية الاحوال والبطاقة التموينية إضافة إلى شهادة الجنسية العراقية..

أكدت لها أنني لم أفاتحها بذلك حتى لا ألتفت في لحظة يضعف فيها قراري. أن أمضي قدما بلا تراجع، رغما عن الروح الكسيرة، وآمال كبيرة ملقاة بإهمال على حافة النسيان واليأس، علني أنقذ ما تبقي من نفسي بما أستطيع إنقاذه.

قررت بذلك أن أمضي وحيدة (بلا رجل) من بعد أن رأيت القتل اليومي الذي انتشر في الشوارع والأحياء والمدن التي لم تبق سوى قرى هجرها القانون الإنساني، بعد أن كشفت عن أسنان حادة، لتلتهم التهاما كل تفصيل متحضّر، صارت تقضم قضما شرهاً بلا هوادة.. مثل ضبع أمسك بجثة فريسته.

ساحت ألوان الدم على كل البقاع، على مدّ النظر، وتركت رائحة الجثث منتشرة في الخلفية.. تطغى حتى على أطيب أنواع الطيب..

هل استقبل العام الأربعين من عمري بمثل ما مضى، والسقم يزداد ضراوة. بقيتُ أشحذ سكين خلاصي.. حتى وصلت في لحظةٍ ما إلى قرار. لم يكن القرار مبيتا ولكنه كان تحت جمر ينظر نفثة سحر تبعث توهجه. مثلما فاتني أن أبيع كل ممتلكاتي، قبل المغادرة.

ولكن لم أجد وقتاً كافيا، عندما قرأت على "الفيس بوك" بارقة أمل بعثت العنقاء من رمادها، حيث تحرك في أعماقي كل المكبوت،

وبغية أن أحرق ما ورائي، بلمحة، أظنها قد كانت مبيتة منذ دهور طويلة.

حجزت مقعدا على طائرة تقلني إلى مطار أربيل.. ولم أصحب معي إلا حقيبة فيها القليل جدا من الملابس الضرورية، وارتأيت أن أحمل مصوغاتي في جيب آمن، فهي ثروتي التي أعول عليها، جهزت كيسا صغيرا صممته ليناسب حمالة الصدر.. جعلني أشعر بالاختناق أكثر من أي وقت، ورغم برودة ذلك اليوم الذي كان يصادف 25 آذار..

(الأم)

لم يكن مطار بغداد إلا زريبة حيوانات قياسا إلى مطار العالم.. كما كنت أحسب.. وكانت أول علامات تلك الزريبة، الفوضى، والتخبط في كل شيء. أكثر من سيطرة تفتيش تعترض الفرد، وكأنها واحدة لا تثق بتفتيش السيطرة التي سبقتها.. أشبه بلعنة خانقة..

بالرغم كل تلك الفوضى والخوف، والنظرات المريبة القاسية التي يتلقاها المواطن من قبل الأجهزة الأمنية في ذلك المطار.

فقد تأخرنا أكثر من ثماني ساعات، في خضم فوضى عمياء بلا أي نظام أو حساب، أكثر من طائرة غادرت، وأكثر من مرة قد جرى علينا تفتيش همجي بحجة الخوف من الإرهاب، تلك المفردة الحاكمة كل شيء من حولنا التي جعلت القطيع يسير إلى الاتجاه الذي يريدونه منها.. إجراء متواصل على المواطنين العاديين.. بات روتينيا كالعادة.

من الطبيعي أن يحصل تأخير عن الموعد المفترض أن تطير به الطائرة. ثمة اضطراب في كل شيء، وارتياب خفي وظاهر حيث حالة طيران مزاجية، بلمحة تتغير القوائم، يحدث في لحظة أن تتبدل أسماء لتتأخر أسماء أخرى.

جلست أنتظر في صالة الانتظار، كأنما حاوية أزبال لا يطاق منظرها، أو رائحتها.. بالكاد كنت أحاول الضغط على نفسي لأتحمل عطانة لا تحتمل.. مكيفات الهواء متوقفة، أتربة تغطي السطوح الملساء، الأرضية تنتشر فيها قناني الماء الفارغة، علب المشروبات، وبقايا فضلات المأكولات متروكة في الزوايا، وبجانب الحاويات..

قال أحد ما بتذمر: (لا الناس تراعي أصول النظافة، ولا حتى مؤسسة الطيران تهمها سمعة البلد)..

شبان من الجنسين، يفترشون مساحة صالة الانتظار، أغلب حديثهم عن الهجرة، وكنت قد تركت أذني تسمع من هناك وهناك،

تلك الهمسات والمناقشات الخاصة بالهجرة.. أغلبهم يتحدث عن الوصول إلى تركيا ومن ثم إلى مستقر مجهول، بعضهم كان متهيبا من البحر، والمهربين الغادرين..

كنت أتحدى الكلمات الرهيبة المسموعة والتي تفلت من هذا وذاك.. أطفال صغار يتصايحون، أمهات وآباء يتململون في غمرة انتظار مقيت.. كنت أرتكن صامتة، مترقبة بحذر. أغلبهم كان مثلي لا ترافقهم سوى حقائب صغيرة، مشوشون لا يستقرون على حالة جلوس واحدة.. القلق كحبل يخنقهم.

تنبهت إلى أحدهم نهض من مكانه، إكراما لي، وجلست بعد ابتسامة امتنان. استطعت في تلك اللحظات أن أريح قدمي من الوقوف والتأخير من جراء فساد مبرمج التمسته في مرافق هذه الوزارة، أو تلك.

انتظرت بصبر نافد حتى انفرجت تلك الأزمة إلى طائرة أرضيتها أكثر خيبة من أية مزبلة في العالم. المضيفة قد لي قدحا بلاستيكيا من الماء عليه آثار طين في أسفله. ولم تهتم لأمر، جلست توزع عَبَساتِها على جميع من شاركنا الرحلة..

(أحمد)

بعد 45 دقيقة وطأت بنا الطائرة مدرج مطار أربيل، كأنما تغير حتى الهواء، وتلك الرائحة العاطنة بات ملحوظ غيابها، نزلت متوجهة مع النازلين إلى صالة المطار..

كنت أعرفها مدينة مختلفة عن بقية مدن العراق، مدينة التي زرتها أكثر من مرة.. عوالمها جديدة.. أغلب ناسها طيبون ولكنهم يصرون على عدم الكلام بالعربية، يؤثرون عليها استظهار لغتهم، فهم معتزون باختلافهم كقوم آخرين..

كنت على يقين بأني سوف أواجه عالماً آخر منذ أول خطوة أخطوها خارج عاصمة الموت "بغداد".. أقاوم ضعفي، رغم يقيني بجلد عزيمتي..

كنت أتبع نظاما صارماً مع نفسي. فأخذت أتحرك دون لفتات الغريب المتفحص للأمكنة الغريبة.

أخذت سيارة أجرة، وطلبت منه أن يوصلني إلى فندق "شهرزاد" القريب من قلعة أربيل الشهيرة تاريخيا التي باتت مركز المدينة الرسمي، وكل الطرق تصل إليها، إذ سبق لي أن أنزلتنا فيه إحدى شركات السياحة، ولم أنسه.. حيث كنا في كل عام نأتي إلى هذه المدينة بغرض التنفس..

عرفت المكان جيداً، ولا حاجة بي إلى سؤال أو دليل لكي أبيع ما تبقى لي مما ادخرت كمصوغات ذهبية، وأحولها إلى عملة ورقية يسهل علي حملها، وإخفاؤها..

(عادل)

قضيت في الفندق بقية النهار، بعد أن نزع الماء الدافئ كل بقايا التعرق وما سدّ مساماتي. ثم حاول النوم في ليلة فيها حافة حلم كاد أن يحتضر...

في التاسعة صباحا دفعت ثمن تذكرة إلى "اسطنبول"..

أردت أن أسارع في تقدمي عسى أن أكسب وقتاً لبقية خلاصي.. كنت أنظر بقسوة تجاه نفسي، وأؤنبها عند كل لحظة تردد.

كنت أحمل التفاصيل مدونة في ورقة صغيرة أخفيتها في قطعة حلية من البلاستيك، بغية الاحتفاظ بها كدليل، رغما عن أني حفظت عن ظهر قلب جميع "التعليمات" والمعلومات التي جاءتني بواسطة "الفيس بوك". أعيد مراجعتها حين وآخر.

في الحادية عشرة والنصف جاءني اتصال على غرفتي بأن موعد الطائرة في الواحدة ظهرا.. أخذت حماما مرة أخرى. ثم خرجت بعد أن دفعت حساب الفندق "30" ألفا..

(الأم)

المرحلة الأولى سوف تتم عبر الطيران إلى "اسطنبول"، سوف يتم إفلات أول حبل من حبال القيد التي قيدتني كامرأة.

يراودني شعور أني ما زلت قادرة على تدبير جميع متطلبات الحياة، ومنذ الصغر.. أحسست أني سوف أستخرجه من القمقم، وأبعثه من رماده..

في ورقة المعلومات الصغيرة رقم لأحد المهربين السوريين، زوجته صديقة لي على صفحات الفيس بوك تقيم في تركيا، كنت أثق بها بعض الشيء، ولكن علي أن أتحرك بحساب، فالأطماع في النقود لا تعرف العواطف. مثلما قالت ذات مرة "المجتمع التركي لا يختلف كثيرا عن المجتمع العربي من حيث التقاليد والعادات رغم امتزاج حياتهم بالحياة الأوربية".

(عادل)

خرجت من مطار اسطنبول بصحبة عائلة كردية أرادت هي الأخرى الوصول إلى مواجهة الهجرة عبر البحر. ساعدوني بإيجاد سكن مؤقت في شقة صغيرة..

كانت زوجته تشرح لي حول تجاربهما الجادة السابقة من أجل الحصول على هجرة بواسطة الأمم المتحدة؛ "الأيام والليالي والأشهر دون تقدم في الحياة سوى شطب الأيام من العمر نحو الكهولة.. وبدأ عامي الثلاثون ينتهي من دون مستقبل واضح"..

"طول هذه الفترة لم اؤمن بالهجرة الغير شرعية.. ولكن لم يوجد هناك سفر عن طريق الأمم المتحدة حتى ولو نسبة واحد بالمائة".

كأنما باب العمر التي سوف تفتح مرة واحدة، حيث كان من حولي ال"مئات الآلاف من العراقيين والسوريين الذين ينتظرونها أن تفتح منذ سنوات، حيث الشرعية أصابت أغلبهم بالقنوط لأنها تحتاج إلى مال كثير للإقامة حتى تشريف موعد المقابلة، ورحمتها، وحكاية قصص يكون أغلبها متشابها، وغير مصدق.. كأنما قصة كل فرد منهم لا تلتقي تحت سماء الشرق المتوسط اللعين الذي غزته الأطماع، وملأته الأفكار البالية جيفا، لا يراد أن تطمر في أي مكان بعيدا عن مكانها الأم"

كنت في كل لحظة استعرض كابوس فشلي. ماذا سيحدث لو أني فقدت ما في حوزتي من مال، قد يكون معرضا لأطماع سراق وقاتلين، فكيف أحرص عليه، حتى الوصول إلى المستقبل.. أتذكر مقولة أحد قادة الفتح الإسلامي، فعكستها إلى "البحر من أمامكم والعدو من ورائكم".. كنت أقول لنفسي "يجب أن نقرأ التاريخ معكوسا، من بعد خيبات متلاحقة"..

(مهند)

بعد أن قطعنا أكثر من (450 كم) وصلنا إلى مدينة (ازمير) التركية استعداد لاستقرار مؤقت حجزت غرفة في فندق "بيان" حتى تتم مواجهة المرحلة الحاسمة عبر أمواج (بحر إيجه) بعد أن شهدت شواطئه نهاية عدد لا يحصى من الضحايا.

ورقتي كانت تقول علينا النزول في أحد فنادق "شارع بسمانة" الذي يبعد عن وسط البلد (350م)..

حيث بورصة "التهريب" وتعد النقطة الأبرز في تركيا كلها التي يلتقي عندها أغلب العاملين فيه، ومن مختلف الجنسيات، كلهم يعرفون بعضهم البعض بأسماء مستعارة، ويحملون وثائق مزورة. كأنهم "أقرباء

لأناس يدفعون الرشوة مباشرة لأردوغان بطرق ذكية، ويغض النظر عنهم)...

التقيت بأحدهم مباشرة في مقهى "نوستولوجي".. كان على مرمى البصر، من غرفتي في الفندق..

كلهم مستعدون لهذه الفرصة الذهبية.. أغلبهم تمرسوا على اللعبة، والابتزاز، وابتلاع الأموال.. كان عليّ أن أكون أكثر حذرا، من غيري.. جرت العادة هناك أن يكفل الناس بعضهم البعض وعند الوصول إلى أول جزيرة يونانية يقوم الكفيل بتسليم بقية المبلغ المتفق عليه لأحد الأشخاص العاملين بالتهريب، أما أنا فعهدت النقود إلى (أم أسامة) التي أتت بصحبة ولدها وزوجته.

(عادل)

وجدت نفسي لابد أن أواجه الحياة بالنسيان، أن أعبر أزمتي بالانكباب على مواصلة القراءة، والكتابة..

التاريخ إما يكون متابعة للحقيقة، والهرب من الزيف.. أو الاستكانة والقبول بكل السخف، والانحناء لفكر السيف الشائه والذي مزق المجتمع إلى أشلاء، دميمة، تالفة.

الفكرة تأخذني حيث استقرت صحة استنتاجي..

وجدتني أعرف الخطوط الخافية، وأخذت أُكشفها عبر أسطر حرى، تريد البوح بكامل القصة.. حيث قصة الفكر سارت إلى أن تثبتت القناعة..

(الأم)

(يا بحر هدي.. هدي..

أنا إنسان وعنواني بلاد الذهب[7])

يوم الأحد المصادف 2015/1/4

كنت قلقة حيال كل شيء، كان الوقت ثقيلاً، وعرباته تجري بتثاقل مريب، كنت أقف على حافة النافذة أرقب العالم.. ثمة دمعة ترقرقت في المآقي.. الناس تتحرك بأمان. نظام جعل الناس تجري بأمان لأن قوى القرار السياسية، لم تفكر ببدء استراتيجيتها واعتبارها نقطة صراع، كأوطاننا.. أردت أن أقول بأن السماء وحدها هي العمياء.. هل حقا قد وصلت إلى نقطة لا عودة..

نقطة أمامي في الأفق تجعل هذا الهدير المسالم الطيب ينتظم. حركة الناس في الشارع طبيعية.. ماذا يحدث لو أننا في بلد كهذا.

[7] اغنية مصرية

سيارات تنتظم وفق علامات المرور، ثمة نفس هادر.. يجعلني أرى في ذاكرتي أدخنة انفجارات، ورائحة بارود..

في الساعة الثانية ظهرا.. رن الهاتف، جاءني صوت مرتجف يتكلم لغة عربية متكسرة. يبلغني التوجه بعد عشرة دقائق إلى سيارة أجرة،

سوف تتنظرني لأخذي مع بعض الناس إلى منطقة "ديدم" الساحلية، والتي تبعد ما يقارب الثمانين كيلو مترا غرب المحافظة.

انطلقت وجدت من حسن الحظ أن تكون بصحبتي عائلة "أم أسامة" إلى تلك المنطقة الساحلية.. حملنا باص تحرك بنا من وسط المدينة..

استغرقت الرحلة حوالي ساعتين وربعا..

حتى وصلنا إلى تلك المدينة الصغيرة، رائحة الماء الطيبة جعلتني أصمت متأملة دون خوف كيف سأواجه بحر الموت، كانت أم "اسامة" معنا إمرأة حديدية، تشبه ملامحها الحادة السيدة "تاتشر"، وكانت مثلها مواجهة، تتكلم بثقة، وعجبت أنها تجيد الإنكليزية، مما زاد إعجابي بها، قلت لنفسي كيف لي لم أحظ بأم مثلها.. الأقدار تركتنا نقيس المسافات والمساحات التي تحولنا إليها كتلا تشغل حيزا، لنأكل، ونعلف كالحيوانات الداجنة..

اللحظات التي كنت أنظر إليها وجدتها تقول لي:

- صاحبكم أبلغنا بأنه علينا الانتظار لحين وصول سيارة صغيرة ستقودنا إلى حيث لا نعلم !!

انتظرنا طويلا، وجدتها تسألني:

- كيف لك أن تحمل هذا المشوار وحدك؟

كأنها سألتني السؤال الذي قلب تاريخي وجعله ورقة تطيرها ريح عابثة.. أردت أن أؤلف لها حكاية، ولكنها لمحت في عيني دمعة خبيئة، ما أراد أن تراها، وحولت نظرها بعيدا إلى خط أفق انفتح كما سماء مفتوحة..

كنا ننتظر في مكان مكشوف لا يطل على البحر، ولكنه يبعث برائحته إلينا.. كأنه يقول إن البحر قريب.. أنا هنا.

بعد أن أطبق الظلام جاءت سيارة تحمل علامة "تاكسي" يستقلها إثنان.. ليعجلونا بالركوب فورا، وبسرعة قبل حضور الشرطة.. فتحنا الباب الخلفي حشرنا أنفسنا في المقعد الخلفي نحن الأربعة، ثلاث نساء، ورجل..

كانت رائحة دخان تشبه رائحة قبو بصل سخيفة، قد طغت على رائحة الرطوبة التي كان يبعثها البحر.

كأنما احترقت إطارات السيارة من سرعة انطلاقها الذي خلف غبارا. وبعد أقل من نصف الساعة مرت فيها السيارة في شوارع فارغة، وبعضها كان ضيقا إلى درجة أثارت مخاوف "أم أسامة" فأطلقت شتائمها بالكردية كأنها تعمَّدت أن تسمعهم، ولكن السائق لم يكن مصغياً..

وجدنا أننا وصلنا إلى فندق صغير.. على واجهته علامة شركة تجارية، تعرض ثلاجة.. قال أحدهم بعربية سليمة

- "الاتفاق قد تغير بسب حالة البحر"..

بأن الامتعاض علينا، ولكن قبل أن نقول شيئا..

- "سيكون هذا الفندق المحطة التي سوف نأخذكم منها"
- "موعد السفر كان اليوم !!..
- البحر ليس آمنا هذا اليوم..

سفرنا مرتبط بهدوء البحر.. ولا خيار لنا..

كان التوتر باديا علينا، ومهما حاول الإنسان أن يخفي قلقه فإنه لا يستطيع. لأنه يباغت من الداخل، زخات الأدرنالين تموج في

العروق كالبحر هكذا كنت أفكر متخيلة لقاء بالبحر المبتلع وكأنه تنين، ليس تنينا، ولكنه عالم يغمر الأرض.. أحد العلماء سمى كوكب الأرض بكوكب الماء، الماء العظيم هو الذي يعطيه أسرار حيويته، وهل يكاد جسمنا البشري يشابه الأرض؟ يحوي ثلاثة أرباعه ماء.. ما وجه هذه المتشابهات.. ما وجه الأفكار.. هل بإمكاني أن أقيم فلسفة جديدة.. أسخر من الموضوع.. لكن ولا بد من إيجاد طاقة تفكيرية تمنع هذا القلق.. أن أفكر أن أعيد التفكير وأرسم شيئا فكريا فنطازيا.. أكثر الأفكار الخيالية العابثة. استطاعت أن تبث ويكون لها كيان.. فكرة وراء فكرة.

الإنسان عابث ومخترع، ومختلق.. إنه يرى الأشياء في خياله، ومن ثم يكسيها لحما ودما، وربما موقفا.. مخترعون كبار مفكرون عهدناهم مرضى، ولكنهم أعطوا لتلك شكلا حقيقياً.. القلق ولابد أنه عكس ظلاله علينا.. قرر "أسامة" أن يلتقي بالشباب الذين سيرافقوننا إلى اليونان في رحلة البحر ومن المؤكد منهم يسكن الفندق الذي نحن فيه.

(فصل)

كان المجهول أمامنا معلقا بين الربابة، والأذن.. أي صوت قد يخطئ، فالربابة آلة غبية، غير دارسة للأزمنة الموسيقية.. آلة حمقاء أرادت التباهي بوترها الواحد، ولكنها بقيت عاجزة عن أن توصل معجزة نبوءتها.. كأنما جميع سكان هذا العالم قد قرروا هجرتهم إلى "أوربا".. وأن الرحلة سوف تنطلق في صباح الغد الباكر وسيكون معنا ثلاث أسر مع أطفالهم لم يتجاوز بعضهم السنة.. عائلة سورية، والثانية عراقية، وأما الثالثة إيرانية هربت من جحيم موعود عليهم..

.31

عند الحدود الرسمية الدولية أنزلتنا تلك الحافلات، لتسلمنا إلى حافلات أخرى تابعة لمقدونيا، حملت رقعة كارتونية كتب عليها (أهلا بكم)، وأخرى (50 يورو من أثينا إلى "مقدونيا).. الكل يعلم أننا مستعدون للدفع، ومهما كلف ذلك المشوار من مدخراتنا التي كنا نحملها بحرص، المخفية في جيوب سرية، لم تكن سريتها تتجاوز داخل الملابس الداخلية.. بدت تلك الحافلات أقل رفاهية من الأولى.. كنا نفكر في صعوبة توفير الأمان اللازم لهؤلاء الأطفال التي كانت برفقة أغلب العوائل السورية.

.32

لم تخل دقيقة من المجاملات، أو الحوارات التي تتقصد معرفة ما بقي لنا من طريق، أو ما بقي علينا من مراحل يجب أن نقطعها، ولكن ذلك يتخلله نقاشات جانبية قد تحتدم في أي لحظة ويتوالد من شرر التشنج، في كل مكان وزمان.. الأغرب لازمتنا ضحكة من جراء لازمة بقي يعيدها علينا السوري "أبو ساره": ركوبنا تلك الحافلات "البعرة تدلّ على البعير".

.33

ثمة حذر شديد، في كل الأمكنة. حذر جعل الناس تحدق فينا جيداً، وكأنهم يكتشفوننا لأول مرة، بسبب الناس المنقسمة إلى الدين، وكأنها تريد أن تقول:

-"لا أريد أن أتخلى عن موروثاتي الأصيلة"..

كأنها تعلم مسبقا أنها غير "مرحب بها بسبب سماحة دينها"، متناسية ما يحدث في العالم من هزات، وكوارث وأن الإعلام قد نفخ في الأحداث، وصوروا مجموعنا غولاً يهدد بلدانهم. (بعض المهاجرين تود عن طيبة قلب أن تعرف مكان القبلة، وأن تصلي باتجاهها)..

تلك مشكلة باتت كبيرة وخطيرة قد سببت الكثير من الارتباكات في المحيط الذي ندخله، وتركت الناس تتعامل مع المسلم بارتياب واضح..

.34

بينما كنا في الحافلات المقدونية وصل إلى سمعنا أن مقدونيا أغلقت حدودها بعد أن سمحت لمجموعة قليلة من الحافلات أن تعبر، وأعلنت غلق تلك الحدود، وكنا الحافلة قبل الأخيرة التي تقطع الطريق رسميا رغم منجاة منظمة الصليب الأحمر الدولية بفتحه، إلا ذلك بات من الماضي، وسوف يعاقب بعقوبة قاسية كل من تسول نفسه العبور، من ذلك الممر، وكأن كارثة إنسانية أخرى سوف تتفاقم.. رغم ذلك حدثونا عن ثمة أمل بالعبور بواسطة سماسرة، استعدوا للاستفادة من تلك الحالة الجديدة.

وجهة رابعة

(وَمَزَّقَ الدَّهْرُ، وَيْلَ الدَّهْرِ، مِئْزَرَهَا حَتَّى بَدَا مِنْ شُقُوقِ الثَّوْبِ جَنْبَاهَا[8])

.35

رست بنا عرباتُ قهر الهجرة إلى أعتاب جمهورية "صيربيا"؛ ظننا منا بأننا قد شطبنا على أغلب المراحل الصعبة، وبقيت أمامنا المراحل قبل الأخيرة، من باقة العذاب الإقليمي، ولم يكن ذلك إلا هاجسا بقينا نتمناه في كل مرحلة ندخلها، من بعد أن سبقتنا الجموع الغفيرة، متدفقة من أجل حياة جديدة، زاحفة بتهافت مريب. حيث تواصلت ببعضها كأنها سرب عظيم من طيور مهاجرة. حلقات شباب مع أطفال ونساء ورجال وشيوخ.. دفعت بهم قوارب النجاة من الموت المؤكد إلى هذه البقعة، لتواجه حياتها الجديدة بأقل ما يمكن أن يواجهه الموت بديلاً عن آمالهم الخبيئة. عوائل من جنسيات مختلفة، سوريون وعراقيون تركوا الموت العاصف يأخذ منهم أغلب ما بقي فيهم من إنسانية..

لم يبق مكان في الساحة العامة المجاورة أو الشوارع القريبة، والحدائق إلا وكان يغصّ بالمهاجرين.. بحثنا عن مكان مناسب.. عسانا أن نجد صديقينا اللذين تفاوتا عنا في زحمة التفاوتات.

---

[8] معروف الرصافي

بحثنا – ثلاثتنا- عنهما، ولم نجد لهما أثرا.. لابد أنهما استقرا مع تلك الفتاتين اللتين قابلناهما في باخرة "النسمة الحائرة" التي أقلتنا من "كوس" إلى "أثينا"..

كان المهاجرون متواصلي الامتداد، ويصعب المشي بينهم.. أحلام، وأوهام مجتمعة في الأجساد المتجاورة.. لغة عربية تطغى على تلك التقاطعات.. لغة واحدة، ولكننا حقيقة "أمم صغيرة في أمة".. كما يحلو للاسم أن يتقسم بيننا.. قال أبو ساره "لنغني أغنية زياد رحباني.. يا زمان الطائفية .. طقّة فيك وطقّة فيّ".. نضحك..

- "إلا أن الحال بات كحال الأيام الحادية والعشرين المتواصلة بالرحيل، حيث كانت الأغلب من أيامها النوم في العراء وملامسة الأرض الصلبة وبين طيات حقائب النوم السفرية".

كلما نظرنا لبعضنا بعضا؛ ضحكنا، لأننا نحاول التغلب على مجاهيل مستمرة، ومازالت تقلقنا، نضحك استعدادا لمواجهة مصير مجهول.. لعلنا نحاول بالضحك والابتسامات العريضة أن نسند بعضنا بعضا، من أجل تحمل ما يلمّ بنا من خوف.. لمَ لا نضحك فالأقدار كلها تسخر منا، ودون رحمة..

لفتنا مرور شاب من بيننا، لفت انتباهنا بطريقته الشرهة في الأَكل.. ولكنه ذكرنا بجوعنا وبخواء أحشائنا، و"بلحم الخنزير" الذي التهمناه في اليونان.

لمعت بيننا فكرة أن نشتري وجبة تساعدنا على احتمال موسيقى أنغام فراغها، التي بقيت خاوية لم يدخلها إلا الماء مذ أكثر من ثلاث عشرة ساعة في مسيرة "باص" تهادى بنا على طريق بدأناه ليلا، وانتهى بنا إلى هذا المكان ليلاً.. سهول لم نكن نراها إلا في خلفيات صور "وندوز مايكروسوف"، خطرت من أمامنا كأنها فيلم يعرض على زجاج "الباص" الذي انطلق بنا إلى "صيربيا".

شاهدنا على جانبي الطريق في وضح النهار أمواجا من ألوان الطبيعة الساحرة، تلك الصور المنعشة تجعل المرء منا يتذكر أن يعبئ نفسا عميقا في صدره، كي يختزن بذاكرته من هذه الصور لحلم مؤجل. كانت هناك وديان متواصلة الخضرة، تشرف عليها مدن متواصلة العمارة، وتحيط بها جبال مزخرفة بالتماثيل شهدت عصورا من الحضارات بعد نكسات لا حد لها.. بقينا نلتقط لها الصور عبر زجاج نافذة الباص الذي كان يمضي بنا مواصلا الطرق الخارجية، صورا، وأغلبنا لم يشاهد مثلها من قبل.. عاودنا النظر لبعضنا وضحكنا وكان قرارا لتبديد الجوع، نظر إلي "أحمد"، بعد أن وجدته ينتظر من أبو "ساره".. أن يكمل قوله بفصحى مرتبكة:

- "فطحل اللغة الإنكليزية.. أما من مكان تأخذنا إليه نأكل مما سيهبنا الله"..

تواصلت ضحكاتنا، وكأنها طير ضال قد حلق فوق الغيوم. بعض الوجوه، تجهمت مستهجنة، وبعضها الآخر تركنا نلهو في عبثنا الضاحك..

قال "أبو ساره"، مواصلا السخرية، ولكن بصوت منخفض:

- اقتراحك فيه أكثر من وجهة نظر..

كأنما قد تحقق بيننا الاتفاق على ان نبحث عن شقة نؤجرها ليوم واحد، يوم يخلصنا من الهمز "اللامز"، ومزيج الروائح الغريبة التي باتت تفوح من زحام الناس التي لم تغتسل مذ انطلقت معنا من مدينة "بوردم" التركية. ثم تسلطت علينا الفكرة لأجل أن "نغتسل ونرتاح في مكان دافئ بدلا من النوم على بلاط الشارع البارد" في انتظار دورنا في تسليم معلوماتنا والحصول على ورقة الطرد ومغادرة البلاد التي وطأنا أرضها.

تجولنا في الأمكنة القريبة، كأن الأجواء كلها هنا مرتابة منا، نظرات متوترة بالخوف منا.. لذلك لم نحصل على جواب، وكأن الناس ترفض أن تؤوي الغرباء حتى ولو بنقودها.. على الرغم من التحذيرات

التي وصلت إلى مسامعنا أن معظم أهل هذه البلاد الفقيرة، يعيشون تحت مستوى من الفقر جعل الجريمة متفشية بينهم.. سمعنا عن عصابات منظمة، وعن فقر مريب يسكن في أرجاء روسيا البيضاء. لم يكن الخوف قد تمكن منا إلا في قرارة أنفسنا نحن الثلاثة، ولكننا بقينا، نصرُّ على التحدي، ومهما يكن. نريد مكاناً نقضي فيه ليلتنا هذه مهما كلف الأمر، نغتسل بماء دافئ وننام بضعة ساعات حتى يحط الصباح علينا، وننعم بورقة طرد أخرى تمكننا من الخروج الرسمي إلى خارج الحدود لما بعد "صربيا"..

كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حسب توقيتهم، ومع ذلك رحنا نسأل أصحاب سيارات الأجرة، ولم نجد لطلبنا جواباً، إلا رجل واحد لم تكن سيارته تحمل علامة "التاكسي"، تقدم إلينا موافقا على أخذنا إلى مكان مقابل أن نضاعف له الأجرة.. (تفاوض معه "أبو ساره" بإنكليزية متعرجة).. ولم نختلف مع الرجل بعد أن طلب (مبلغ 60 يورو تقسم على ثلاثة كل منا 20 يورو) مقابل مبيتنا لليلة واحدة. وافقنا بلا تردد بعد أن اشترطنا عليه أن يرينا المكان أولا..

حملنا حقائبنا الصغيرة شبه الفارغة إلا ما تيسر لنا من حمل خفيف يحوي الملابس الداخلية وبعض الألبسة الخفيفة، ولم نفكر باننا عُزل فكل دولة ندخلها كانوا يفتشوننا فيها إلى درجة العريّ، وجميع حقائبنا كانت تمرر عبر مرقاب خاص..

انطلق بنا محاذيا للشارع العام ثم بقي ينعطف في شوارع فرعية، كادت أن تخلو من حركة.. لم نكن نتوقع أنه سوف يأخذنا إلى مكان لم يوجد فيه إلا صمت القبور، ولم نكن نعرف بأنها من سمات مدنهم التي لم نفهمها بسهولة.. حيث أثار المكان فينا ريبة ما، نظرنا إلى بعضنا بعضا، ولكننا اعتبرناها أزمة أيضا ولابد أن نتجاوزها بالضحك، ولكنه ضحك خرج بصعوبة وكأنه لم يكن عفويا..

بدت لنا البناية التي توقف عندها تبدو شبه مهجورة، بابها الرئيس من حديد صرّ بخفوت.. عندما دفعه ليدخلنا.. بقيت أعيننا تتفرس تفاصيل المكان. بعدها أنزلنا الحقائب، ورحنا نتبعه بريبة.. بينما بقيت أعيننا تستطلع المكان.. المكان قديم ولكنه منظم تحيط به شوارع فرعية.. كان يدقق في وجوهنا كأنه يريد أن يحفظها، وأحس بارتيابنا وقال لنا من أجل طمأنتنا

"لم نبعد سوى 4 كم"..

وكان يشير باتجاه المكان الذي تركنا فيه جماعتنا تفترش أرضه..

كنا نراقب بحذر، ونواري خوفنا بالضحك المتواصل. قال لنا مشيرا عليها بإيماءة:

- "تلك البناية التي أمامكم هي مقر السفارة البريطانية، ورجانا أن نلزم بعض الهدوء، حتى ندخل المكان".

ومع ذلك لم نهمل النظر إلى محدد الملاحة في الموبايل. حددنا المكان على الخريطة: - "خير دليل في عالم ازدحمت علينا خرائطه"..

لم تكن البناية عالية كبقية البنايات التي جاورتها.. كأنما غير مأهولة، فأراد أن يبدد الارتياب:

- "المكان مناسب ورخيص الثمن"..

نزلنا بضع درجات، ثم واجهنا ممر شبه مظلم تتراوح طوله 6م، برغم كفاح مصباح وحيد استقر فوق باب الشقة. لم يكن في الممر أي شباك عدا تلك الباب التي فتحها دون أي مفتاح.. ترددنا في الدخول، لكنه مدّ أصابعه إلى زر الإضاءة، وانتشر الضوء، فلقينا أنفسنا قد دخلنا إلى مكان كبير وفاره من الداخل.

واجهتنا صالة الشقة وعلى أطرافها أبواب منها لغرفتيّ نوم، وأخرى لحمام فيه كل اللواحق الصحية، أما المطبخ فلم يكن له سوى إطار خشبي يشرف مباشرة إلى تلفزيون كبير كان مثبتا على الجدار، تحته جميع لواحقه الصوتية. وتوزعت على الجدران صور عديدة نظيفة البراويز.. شبابيك كبيرة تصل إلى الأرض وكلها تطلّ بباب إلى الحديقة.

كان الظلام في الخارج يخيم على المكان برغم التيار الكهربائي الذي كان ينير العتمة.

جلسنا أولا في الصالة الواسعة، ورحنا نركن أغراضنا.. كأنما اتفقنا أن لا ينام أحد منا في غرفة نوم الزوجية، لأنها لم تحتو على تلفاز. كنا نتابع تفاصيل الموجودات بدقة، من يريد أن يعرف أين يضع قدمه.. تفاصيل حضارية لبيت متحضر.. لم يخطر ببالنا أن المكان فرغ لأجلنا مقابل ذلك المبلغ الزهيد.. بقينا نتابع فضاء المكان.. مجموعة كبيرة من الأحذية الرجالية والنسائية رصفت بعناية داخل جزامة استقرت قرب الباب.. تفاصيل كثيرة دلت على أن الشقة، مأهولة من قبل زوجين وليس لهما أولاد.. بدت مؤثثة بكل شيء، نظافة المكان يدل على أنه مأهول وهو مفرغ لنا لتلك الليلة. من أجل أن نستريح فيها مثلما قال لنا سائق التاكسي قبل أن يغادرنا

"إنها مفرغة لنا للأيام التي ندفع له أجرتها، ومتفق مع أصحابها بهذا السعر عن كل ليلة.. إذا رغبتم البقاء إلى يوم فإنه سوف يعود غدا لاستلام أجرته"..

باشرنا بعد خروجه في التدقيق في غلق الأبواب، من أجل الأمان.. لكن يبدو أنه نسي أن يسلمنا مفتاح الباب الخارجي. ومع

ذلك توزعنا ندقق في غلق النوافذ، متجولين في المكان.. لم نكن في ساعة استقرار، بالرغم من أنه لا يوجد منافذ لكاميرات مراقبة..

قلت لهما: "أنا لم أرتح لهذا السكون؟"، وأضفت: "تخيلوا أننا في عمق نومتنا يدخل علينا من يخدرنا، ثم يسلبون منا أعضاءنا".. "حتماً سنتحول إلى أدوات احتياطية.. صالحة للاستخدام البشري بعد أن كنا غير ذلك!".. ثم قال "أبو ساره" بعد أن أوقف ضحكته المجلجلة، ومغيرا الموضوع:

-"سوف أغتسل"..

بقينا نتأمل في صور الحائط.. "صاحب الشقة مع زوجته في زورق، صاحبة الشقة في صورة أخرى مع تلاميذ في صف دراسي، المرأة شابة في الثلاثينيات.. تقف مع رجل كهل ويظهر من الخلف شمعدان فيه سبعة محامل شموع.. الرجل يقف إلى جانب زوجته وهي منتفخة البطن، وترك يده اليمنى على بطنها"..

لم يتأخر "أبو ساره" في الحمام، خرج مغطيا وسطه بمنشفته، وهو يقول: "لم أحتج حتى ل"شامبو" يا فطحل الإنكليزي"، ثم سبقني "أحمد" في الدخول إلى الحمام.. اضطررت بينما ينتهي من الاغتسال؛ أن أدقق في كيفية عمل تلك الأقفال التي كانت تعمل بشكل لم نألفه من قبل في بيوتنا.. عاود الضحك أبو ساره قائلا: "شتان بين البيت

والزريبة".. صاح "أحمد" من الحمام يطلب مني أن أناوله شامبو الغسيل من حقيبته"، أكد "أبو ساره" بأن الشامبو موجود.. إلا أن أحمد أكد "الشامبو خاص بغسيل وبر الكلاب".. كتمت ضحكة، ورحت أمسح على رأس "أبو ساره"، وأنا أقول ما شاء الله بدا مفعوله عليك سريعا.. فأكمل ضاحكاً:

- "وبعد قليل تتوقع مني العواء"

ثم جاء دوري بعده للاغتسال. ورحت معهم أتناغم مع الضحكة التي تندلع صافية، وعَفيَّة.. لتلامس الجدران، رجوناها أن تكون أكثر رفقنا بنا فيرجع لنا صداها، يطمئننا أن تتسع المساحة لآمال كبيرة علّها تتراشق كرقصات ناعمة، وتجعلنا نطوف في مكان آمن..

ما أن انتهيت من الحمام حتى عدت حيث بدأت محاولاً التأكد من إقفال شبابيك الغرفتين، وأنا أفكر في كيفية صياغة مزحة جديدة تتعلق ب"الشعر الغجري المجنون"، والكلب.. أوقفت أغنية "عبد الحليم حافظ" التي تركتها تتهادى من محمول "أبو ساره"، وحاولت الإصغاء إلى صوت كان لضيفة دخلت علينا.. جاءت إلينا من الباب تحية "صوت أنثوي".. أسمعه يستأذننا بالدخول "هلوو.. هلو".

كانت أمرأة طويلة تشكل في شعرها وردة، برفقة كلب ضخم أسود الشعر وقد أقعى أمامها مطيعاً، بينما وجدت رفيقي معها يستمعان

إلى ما تقول دون أن ياليا بالخوف من الكلب.. بينما هي تبدي لهما عن أسفها بلغة إنكليزية واضحة عن سبب تواجدها المفاجئ، وكأنها متظاهرة بعدم معرفتها بأن زوجها قد أجّر شقتها، ولم تبد تذمراً، بل كانت مستسلمة للأمر، وكأنه يتكرر دائماً.. كان شعرها الأسود الجميل يتدلى على كتفيها، ترتدي بلوزة بيضاء بأكمام طويلة غطت معصميها، وبان طلاء أظافرها بلون أبيض أضفى جمالا إضافيا إليها.. أما بنطالها فقد كان فيه فتحتان واحدة على الركبة والأخرى على الفخذ الأيمن، وكانت تحمل بيدها سترة رمادية بلون البنطال.. بدت كملاك تهادى بأجنحته من خيال على صوت موسيقى.

ما أن التفت حتى شعرت كم كان جمالها لافتاً.. إلى درجة أربكنا ثلاثتنا، وجعلنا كالمسحورين، نتابع نعومة أجبرتنا على الإصغاء إليها بكل جوارحنا، وكأننا لا نريد أن يفلت منه حرف واحد. التفت إلي، وتأكدت بأنها ذاتها السيدة التي رأيناها في الصور المعلقة على الحائط. فاجأتني "إن كانت هناك مشاكل في أبواب غرف النوم".. فهمت أن كلامها كان موجها لي، لأنه قد لمست الأبواب ذاتها قبل أربع دقائق.. جعلتني أشك أنها جاءت إلينا بعد أن اعتمدت على كاميرا مراقبة.. سألتنا إن كنا نحتاج إلى شيء، فأعرب "أحمد" عن رغبته إن كان هناك اتصال انترنيت، فرحبت بطلبه، وأخرجت من حقيبتها نقالها، وفتحت منه لنا "الانترنيت".. بقينا صاغرين، وقالت منسحبة، بأنها ستنام في

شقة مجاورة، وسوف تترك هاتفها وسوف تعود لأخذ جهازها المحمول عندما تغادر إلى وظيفتها في الصباح..

قبل أن تخرج كنا سويا في حالة ارتياح لهذا الكائن البديع الذي حل في قرارة أنفسنا، نتأمل تناسق ألوان ما تلبسه مع توقد عينيها اللتين انسرحتا ترتعان بين رمشين طويلين لم يكونا مستعارين، وقوسي حاجبين خطا بعناية إلّاهية كأنما قد أبدعهما الخالق ليرينا أي جمال قد ترسمت به، واعتنى بها لتكون صاحبة الوجه الذي يحمل كل ذلك الجمال الآسر..

تركتنا لنقول لبعضنا بعضا: (هل كنا نحلم؟).. لكن ثمة لمعة اكتشاف متوقدة، كانت خبيئة في عينيها، وليتنا نعرف جيداً -اللغة، لنحلل كلماتها، ولكنها بدت أثناء كلامها بأنها تتعمد أن تعكس صدقاً.. ليتنا نعرف ما الذي أتى بها إلينا لتحل بين ثلاثة رجال دون أن تخاف منهم، هل تعتمد على الكلب فجعلها تنطق مخارج كلماتها بطريقة واثقة.. "أم هي من ضمن فريق عمل.. تمركز خلفه سند لها يتابعها عبر الكاميرة مما جعلها متأكدة بأني أحاول تأمين النوافذ".. تبادلنا تلك المخاوف، ولكننا غير متأكدين من أي شيء، حتى فاضت علينا المخاوف وجعلتنا نعاود التحديق في الحيطان، والنوافذ، وكل شيء بحثا عن تلك اللعنة التي اسمها "كاميره"، وأين مكانها، وكيف خبئت. "إن كانت هناك واحدة حدسنا وجودها أمام النافذة في تلك الغرفة، ولا بد أن تكون

عدة كاميرات موزعة لتراقب كل المكان.. تسلط علينا هاجس المراقبة "قال أحمد يكفي عليكما ناكر ونكير اللذان نحملهما بين تلافيفنا.. دعونا ننام"..

لم يمض على ذلك سوى عشرة دقائق، حتى عادت من جديد تعيد السؤال علينا "إن كنتم في حاجة إلى شيء"، أو "أنها عادت لأجل أن تتكلم مع زوجها"، واقتصر ذلك على دقيقة، وهمت مغادرة..

- قال أبو سارة أرحب بالموت على يد هكذا امرأة.. هل رأيتما أصابع قدميها..
- "كانت حافية القدمين كما يقول "قباني"..

ولأجل أن نطمئن أنفسنا، أكثر فكرنا "لو أتى كل واحد منا بسكين من المطبخ"، فكرنا بأنها حالة بائسة أن نخاف من امرأة. أو الخوف من الفريق الذي يعمل وراء الكاميرة. غلبنا الخوف وأضاع منا رغبة النوم، أرسل كل منا ما في جعته من الصور إلى أهله.. "أبو ساره تحدث مع ابنتيه وأمها".. أما "أحمد" كلم زوجته وأمه عبر الماسينجر".. سألاني إن كنت أواصل الكتابة عن خيبتنا المتلاحقة".. ثم عاودنا الضحك من الأفكار والاحتمالات.. ففي كل لحظة ينتصب أمامنا شبحها طويلا بظله الطويل يمنع عنا أية اغفاءة، ومهما حاولنا..

- قلت ليتنا لم نأت إلى هذا المكان؟ كيف سنخرج"؟
- "أبدا لا شيء سوى أنها تخاف من أن نسرق أغراضها"..
- "ربما سوء ظننا جعلنا نغفل عدم حصولها على مكان تنام فيه"..
- "مؤكد أنها تبحث صحبة"
- "لا تسقط طريقة تفكير بيئتنا على طريقة تفكير بيئتهم"؟..

اتفقنا لو عادت تسألنا من جديد ستكون تلك المرة الأخيرة، لأنها كررت أسباب عودتها إلينا، فكلما غابت، نجدها بعد لحظات قد حضرت مع كلبها لتكرر رسم بسمتها على وجهها الساحر.

لما عادت كنا قد عزمنا أن نترك المكان، ونعود إلى مستوطنة الانتظار.. كانت الساعة قد قاربت الخامسة صباحا، لممنا أغراضنا وتركنا رغبة النوم. رفيقة الرعب، وأن نعود إلى ذلك "الهرج" بدلا من ليلة خوف متواصل كاد يوقف قلوبنا.. كنت أول الواصلين إلى خارج الشقة و"قطعت الممر المظلم بشق الأنفس، جعله الخوف أطول ممر في العالم".. وقد تأخر رفيقاي في الداخل لأنهما بقيا يواصلان الحديث معها.. اسمها "جين" متزوجة منذ تسعة أعوام.. وأهلها من منطقة "كرينا" المشهورة بكروم العنب وتفتخر بجودة صناعة النبيذ الأسود الذي يرغب به السياح الفرنسيون، وأيضا قد عرفا منها بأنها "خسرت

طفلها، ولم يكن بوسعها أن تحمل من جديد".. وأضافا: "تركناها تمسح دموعها".

بقيتْ خطواتنا ترتجل الأفرع الجانبية، باتجاه ما يعلمنا به "غووغل المحمول".. دلنا على طريق مختصر من شارع إلى شارع، استرشدنا به طريقنا حتى وصلنا المكان، وهناك افترشنا الأرض..

كنا نقول لبعضنا بعضا ونحن نحاول التغلب على وقت الانتظار: "لو لم نكن قد حضرنا عصر المحمول لكنا قد استرشدنا طريق العودة".. "نسترشد بواسطة رائحة جماعتنا.. علامة فارقة ".. وأضفت: "وبعد الشامبو الخاص بالكلاب تحفزت لدينا غريزة الشمّ عن بعد".. بقينا نواصل ضحكنا حتى غفونا..

.36

بعد نوم متواصل على أرض صلبة.. استيقظنا منه على صوت فريق من المتبرعين الصربيين كان يوزع لكل فرد من المهاجرين وجبة طعام مغلفة في علبة مع علبة عصير "عنب"..

قال أحمد: "كم ظلمت جين الجميلة.. يا ميثم"..

أجبت بلا تردد: "لست نادماً على عدم خسارة أي عضو من جسدي"..

قاطعه "أبو ساره":- "علمتُ من موظفة الصليب الأحمر أن طريق أوكرانيا بات مفتوحاً الآن.. وبه نكون مستغنين عن المرور ب"هنغاريا" التي سارعت بغلق حدودها خوفا من زحفنا".. إذ قررنا أن نتخذها محطتنا القادمة بدلاً من احتمالات الوقوع تحت طائلة القانون الهنغاري المتشدد..

- "أوكرانيا لا تنتظر منا ورقة "طرد"..

ثم لملمنا ضحكاتنا على عجالة.. "المرحلة التالية".. دفعنا (60 يورو) واستلمنا بطاقات الحجز لتنطلق بنا باصات حديثة جداً، وحسب موعدها تمام الساعة الثالثة بعد الظهر..

.37

الزهو كله غناء ورقص عظيم في داخل الحافلة يوازي الاحتفاء الكبير الذي صرنا نلتمسه من "الكرواتيين" المبتهجين بنا أكثر من كل مدن الله العظيمة المنتشرة في حدائق الكون الأرضي، بمرورنا عبر

مدنهم، رأيناهم يلوحون لنا بأحلى ما عندهم من زهور، وأزياء، وإنسانية، وأنغام. حدث تصرف جريء من امرأتين حيث قامتا برمي ملابسهما الشرقية من نافذة الحافلة، وقوبل ذلك بتصفيق، وتشجيع. بات الطريق بين أحضان مدنهم مليئاً بالأضواء، والعطور والبهجة.. ابتسامتهم المشرقة كمصابيح تكسر وجه الغربة، وكأنهم يستقبلون أبطال الأولمبياد، القادمين من مشوار الشرق الشائك بالعتم والموت.. مجامع الأطفال تشكل مع الصبايا والشبان والشيوخ باقات كرنفال توزعت على جوانب الشوارع التي نمرّ بها، يلوحون لنا بباقات الورد، وبأحلى الأيدي، وأجمل الوجوه.. كأنما زال منا تعبنا والزهو بلغ بنا أن نرد لهم التلويح والابتسام، بالابتسام، وبالتلويح الأشد..

رأينا وجوها لنسوة جميلات بذوق آلهة، فيها للوجه خطوط آسرة، قلما شاهدنا نظيرا لها.. صبيات وجدناهن ينتظرننا في محطات الاستراحة، ويبالغن في عطائهن إلينا بسمات وأيديهن تناولننا في سلال صغيرة مختلف صنوف الفاكهة، أكرمونا أيضا بالملابس الجديدة، وبأغطية غير مستعملة. مستوى الفرح العالي، واكب وصولنا؛ أغاني الفرح بموسيقى هائلة الوقع، تغني وصولنا:

"أهلا بك أيها الإنسان"

والأهم بأنهم قد أكرمونا بالنقل المجاني على نفقتهم. قسمونا على باصات حديثة ثم رفعوا كلفة النقل داخل هذه البلاد المبهجة، باصات مريحة ومرفهة بدفء وموسيقى هادئة. أقلتنا بكل حب، وحملوها "الساندويجات" مع أشهر ما لديهم من عصائر الفاكهة الشهيرة.

ما نزلنا حافلة إلا لنصعد إلى باصات أخرى ثم نواصل المسير عبر مدن طيبة المناظر طيبة الهواء.

دون أي تأخير، كانوا يعملون بدأب وحرص على تسهيل أمر عبورنا بانتظام لم نألفه في أي مكان من الأمكنة التي مررنا بها.. بدت لنا هذه المرحلة من زحفنا العام من أجمل المراحل

لم يكن من أمر صعب إلا أنهم قاموا بعزل الرجال عن النساء، كل جنس في حافلة لسبب لم نفهمه، إلى العاصمة "زغرب".

بعد أن توفرت لنا الأنترنيت في الحافلة، مع نقاط عديدة لشحن أجهزة الموبايل، قال أبو سارة، وهو يقرأ من الموبايل:

- "هي جمهورية برلمانية تقع في جنوب شرق أوروبا. عاصمتها وأكبر مدنها هي "زغرب"، تبلغ مساحة البلاد 56,594 كم، ويبلغ عدد السكان حوالي نحو 4.29 مليون نسمة".. لم ننتبه إلى صوته الجهور، بينما كنا نواصل الضحك، وبقي يقول: "تنقسم البلاد إلى 21 مقاطعة ولها حدود مع "سلوفينيا" و"المجر" و"صربيا" و"البوسنة" و"الهرسك"

و"الجبل الأسود". اللغة الرسمية في كرواتيا هي الكرواتية وهي إحدى اللغات السلافية؛ وعملتها الرسمية هي الكونا"..

قال أحمد: "لو بقيت تقرأ لنا حتى الصباح.. ما الفائدة؟"..

احتدم قال "طبعا أبدا لم تصغوا يوما إلى مادة علمية"..

- "نعم: الله بشموسه وأقماره ومجاميعه الشمسية، ومجراته القريبة من مجرتنا.. قد شدّ من قصوى عليّائه على أبي لهب وامرأته حمالة الحطب"..

عاودنا ضحكنا المتأرجح.. ضحكنا الذي بات كالغمام الطائر في السماء الأوربية الباردة. وبقينا نطوف في علوّ بعيداً عن الغمام الذي يلحق بنا مثل نذير شؤم. نحن أمة متعوسة، ومحبوسة في قمقم الوجود، ونريد أن ننفجر في طلعة واحدة، ونحتل العالم.. أمة عاجزة عن العمل، لذلك نظن أنفسنا بأننا أمة معصومة من الخطأ لأننا أمة لا نعرف العمل، فكل من يعمل يتعلم من أخطائه، ولذلك نحن معصومون من العمل...

.38

تلك الفرحة لم تتم، لأنها انتهت بعد أن تأكدنا أنهم أدخلونا إلى أحد السجون المهجورة، وأغلقوا علينا أبوابه الرئيسة..

حدث هياج شديد، ولكن ذلك أهمل من قبل أصحاب المكان، فعدنا صاغرين، نتحمل الأمر وننظر إليه من باب الانتظار..

كان سجنا مترامي الأبعاد حوى على قاعات كثيرة، وتم ملء القاعة الأولى حسب اختيارات عشوائية حيث لم يسمح لنا الدخول إلى قاعة إلا حسب اختيارهم، أرادوا توزيعنا حسب آليات عشوائية، غايتهم تفريق التكتلات فنزل كل شخص في مكان أقروه له..

كان الانتظار ممل جدا: حيث اغتسلت في حمام ليس فيه أي قاطع لحجب الرؤية عن جاره المغتسل، أجبرنا قبول التكيّف على تحمل تلك الزنزانة.

كانت الأسرة من طابقين فاخترت الطابق العلوي، وجلست مدونا بعض التفاصيل كي لا أنساها والتي قد تؤسس لي كتابة رواية أملت نفسي في كتابتها، لم يستقر في ذهني اسم لها، لأنها أصلا تفاصيل تحتاج إلى إكسائها شكلا مقنعا، على الرغم أنها حقيقة، ولكنها حقيقة أغرب من الخيال، حقيقة مريرة، وكأنها صامتة لن أتركها تنفجر في داخلي على أن أدون ما أستطيع عليه، وليست عندي وسيلة سوى هاتف "كلاسكي 3"، وأدون مخطوطة أولية كبيضة ربما ستفقس في يوم عن كيان روائي يصير له روح حيّة بين الأرواح:

.39

أخرجت هاتفي وكان علامة شحنه تدلني إلى النصف فقررت أن أكتب:

كان انتظارنا سقيما مليئا بشتى الوساوس، وقد مرت علينا ساعتان متواصلتان لحين وصول العوائل السورية بضمنهم شبان من جنسيات أخرى.. ثم استعدوا مثلنا بارتداء التجهيزات، وهي عبارة عن قميص فسفوري يعكس الضوء، والاستعداد لعبور الحدود اليونانية باتجاه مقدونيا..

مضت ساعة أخرى حتى وصل (الرابري) وهو الشخص الدليل الذي سيسير الجميع خلفه وكان من الجنسية الألبانية فقد أمر الجميع بالسير خلفه لتبدأ الرحلة نحو مقدونيا..

.40

معظمها كانت أرضا منبسطة وسهلة. لكن التوتر كأنما يطغى كالغمّ. ثمة هواء نظيف لم نستطع أن نشتقه دون خوف، وقلق وحساب للموت.

برك الطين هنا وهناك.. عليها آثار بشرية قد عبرتها، كأنما كان دليلا على أنه الطريق الذي لا يضيع. استمررن بالسير لمدة أربع ساعات

لم تقطعها استراحة بين مسافة وأخرى إلا من أجل أن يلحق بنا من خلفنا.. حتى أخيرا بدأنا نرى أضواء القرى المقدونية.. بعد ذلك صارت الطرق أغلبها ملتوية ومسارات مخفية، قال المهرب إننا نعبر حاجزا للدرك أو نقطة فيها أشياء ليست في حسابات عقلنا حتى وصلنا إلى غابة ذات أشجار وأعشاب طويلة ليأمرنا "الرابري[9]" بالجلوس.

ثم انسل مختفياً دون أن نعثر له على أثر. اختفى الدليل..

وجلس الجميع يسحب أنفاسه بعد تلك الساعات المتعبة من السير المستمر. ثم فتحوا حقائب النوم وبدأ بالنوم من استطاع النوم.

(أسامة)

بعد نصف ساعة عاد الدليل إلينا ليكمل مهمته ويقودنا مرة أخرى إلى عمق الأراضي المقدونية.. ولكن الأمر الغريب بأننا مررنا بمخافر حدودية كانت تبعد 1 كم، ومرّ بقربنا رهط من العساكر بعدد يتجاوز الثلاثين كأنهم تغافلوا السؤال عن وجهتنا..

9 الدليل او المهرب.. فضلنا ان نسميه بما سميه من قبلنا..

بعد ذلك وصلنا إلى إحدى الشوارع الرئيسية واختبأنا خلف القصب والأشجار العالية التي كانت تفصلنا عن ذلك الطريق لنقف منتظرين السيارات التي ستأخذنا إلى النقطة القادمة حيث مدينة كومونوفو (komonovo)

(العم)

بعد خمسة عشر دقيقة وصلت ثلاث سيارات.. ركضنا إليها لنحجز فيها مكانا. ثم صعدت من الباب الخلفي، انطلقت السيارات بسرعة عالية، رغم أنها قد حملت أكثر من طاقتها، حيث كنا محشورين في كل سيارة عشرة أشخاص. أضواء السيارات في الطريق المعاكس، تمرّ بسرعة خاطفة، ومخيفة، كان ذلك أيضا ضغطا من ضغوط الموت، لم نعهده إلا بتوتر خفي كتمناه دون أن نقول أو نعبر عنه بأي تصرف، كنا كقطع خانع، ساكت كخرفان تجهل مصيرها. نظرت إلى ساعة السيارة المضيئة فكان الوقت قارب على الثالثة صباحاً..

وبعد نصف ساعة من السير.. وقفت بنا السيارات، وأنزلونا منها، أمام منحدر توسط وادٍ بين جبلين فيه عدة شجيرات يابسة ومن ثم واصلوا سيرهم دوننا، سمعنا عن ثمانية أشخاص تخلفوا عنا، ولم يجدوا مكانا لهم إذ بقوا في النقطة الأولى وبعث لهم المهرب إحدى السيارات

لتجلبهم.. كان علينا أن ننتظر قدومهم. كان المكان بالأصل هو نقطة معروفة من قبل المهربين، حيث يسمحون للمهاجرين، النوم فيها، نقطة معلومة للسائق الذي سوف يعود بالباقين. ثم حان وقت النوم، أخرجنا أكياس النوم لنستريح قليلا.. لكن البرد الشديد لم يسمح لنا بذلك..

كنت أخفي اضطرابي فبدأت الحركة لأحصل على طاقة دفء علّي أقاوم بها البرد الذي يتسلل إلى عظامي..

بدأت محاولات بالاتصال بالمهرب لنعرف مصير من كان معنا، وتبين لنا الاتصال معدوم في تلك القطعة المجهولة من العالم. كانت بيننا امرأة تسأل بإلحاح عن زوجها، وبعد محاولات عدة استطعنا الحصول على إجابة أن من تخلف عنا باتوا في طريقهم إلينا.

(فصل)

أغلب المهربين يستعلمون لغة خاصة، وإشارات لم تكن معهوده لنا. لكنها لغة سرية من الإشارات تجعلهم في مأمن من الوشاة، تلك الإشارات فيها واختيار الطرق أو تغير المواعيد.

عرفنا أن الموعد تأجل إلى نصف ساعة أخرى، بعد أن وصل إلينا شخص يركب دراجة نارية، كانت وسيلة اتصال بينه وبين مهرب

آخر يرشده كي يتجاوز عقبة في طريقنا. يستطلع لنا المكان الذي نود المرور إليه، وبعد أن أمن المكان من عدم وجود الشرطة، غادرنا وبقينا ملزمين بالانتظار في ذلك الوادي حتى أوشكت الشمس على الشروق..

بعدها جاءت ثلاث سيارات لنركب نحن الإثنان والعشرون وننطلق بها بسرعة فائقة، ولضيق المكان لم نكن نقوى على الحركة.. فقد أصبحنا واحدا فوق الآخر.. علينا التحمل..

(مناف)

بعد ثلاث ساعات توقفت السيارات داخل منطقة سكنية بيوتها كالأكواخ.. أحاطها الثلج من كل جانب..

نزلنا في هذه المنطقة وتوجهنا إلى أحد البيوت لندخل فيه لنرتاح.. المنطقة تدعى (كومونوفو).. وفي بيت منعزل خصصت لنا غرفة واحدة..

اتفقنا على أن ننام على شكل وجبات.. وقد حاول البعض أيضا الاتصال بالمهرب الرئيسي لمعرفة مصير الأشخاص الثمانية الذين بقوا في النقطة الأولى.. فأخبرونا بأنهم شارفوا على الوصول.

(مهند)

قضينا في (كومونوفو) تسع ساعات حتى جاء الدليل ليخبرنا بأنه علينا الاستعداد للرحيل إلى مدينة (لويان) قريبة من الحدود الصربية.

وفي تمام الساعة الثامنة مساء، وبعد غروب الشمس انطلق الجميع برفقة الدليل الألباني متجهين إلى مدينة لويان التي تبعد 5 ساعات سيرا على الأقدام..

(مناف)

بدأنا بالسير ولكن على أرض متجمدة، كنا نسير بسرعة قطعت أنفاسنا. بين طرق ملتوية تارة، تلال وصغيرة، أرض محروثة باتت وحلة.. وتارة نخفف وتيرة مشينا بمهل، وربما متأخرة قليلا عن المجموعة، كنت مصاحبة لسيدة سورية كانت تعاني مع السير السريع.. وتعاملت معه بصعوبة كبيرة..

اضطر أحد الشبان أن يسير معنا، وكان إيرانيا وأخبرنا بلغته الإنكليزية التي تكاد شبه معدومة بأنه سيرافقنا، وسوف يعمل على إراحتنا قدر ما يقدر، ومن دون مجهود حتى نصل إلى سكة حديدية نسير بمحاذاتها ثم بعدها إلى (لويان[10])..

[10] اغلب الاسماء كنا نلفظها بالطريقة التي نسمعها بها..

استمر يحدثنا عن أهله، وعن الطرق وعن كيفية عمله مع سماسرة التهريب، ومشاكله معهم كأرباب عمل مجحفين..

(الأم)

استمررنا بالسير خلف الدليل بين الأشجار، في طريق محاذ للشارع العام، وبعد نصف ساعة من المسير تبينت سيارة تابعة للشرطة المقدونية وقفت على بعد خمسمئة متر تقريبا، فاضطررنا أن نطفئ كل الأضواء الشحيحة التي كانت معنا لأجل عدم لفت انتباههم إلينا.. من الصعب أن يشاهدونا حيث تفصلهم عنا كثافة الأشجار والظلام الدامس..

طلب الدليل أن نقطع حتى الهمس بيننا، وأن نكف عن استعمال الموبايل، لأي سبب كان. وما أن تحركت الشرطة في الشارع، حتى وجدنا أن الدليل قد اختفى في عمق الظلمة كشبح..

تعودنا على اختفائه، فما يختفي حتى يظهر من جديد، ولكننا كنا نعرف مسبقا أن أغلبهم يبتعد عنا كلما لاح الخطر عليه، ويبقى مترقبا لنا من بعيد، وربما يعود علينا بعد كل فاصلة خطر، لأن هناك وراء الظلام، مهرب رئيسي قد لا يعطيه أجرته، كاملة، يكون نصف المبلغ بعد الوصول، وإن كمل المبلغ سوف يضمن حقه.

وربما الخطر مباشر على المهرب، يكون بتبعاته على المهرّب الرئيس.. شبكة خيطية لعينة، مثلما أية لعنة أخرى متبعة نظام مؤسسات غايتها الإفلات من طائلة القوانين..

تبين لنا هذه المرة، هربا، وقد تركنا نواجه الذي ما ينظرنا.

لحظتها حدث هلع ظاهر بيننا، وقد أدى إلى انقسام المجموعة إلى عدة أقسام، وطلب من بعضنا البعض أن نتوزع بين الأشجار، حتى يكون من الصعب الاستدلال على أماكننا. وبسبب الظلام لم نستطع أن نرى أي شيء.

طلب السوري من أفراد عائلته أن تنام على الأرض في أحد الخطوط المحروثة، وفعلت مثلهم، اخترنا النوم على الأرض التي يغطيها الثلج، زوجته كانت مؤمنة بما أشار عليهم، كانت إشارته بيديه تدل على أنه كان متدرباً على ذلك.. كحل منطقي، ومؤقت..

ركنا في تلك الحدود حتى مضى علينا الكثير من الوقت، ولم نسمع فيها سوى وقع أقدام تركض على الثلج. لو حدث أن ركضنا سنكون تحت مرماهم.. بذلك لم نعطهم فرصة اكتشافنا.. قد يتبعون أصواتنا ووقع أقدامنا على الثلج، ويسهل مسكنا، وقد نعود إلى مربع أوطأ، مثل لعبة الحية والدرج، وربما حية كبيرة تبلعنا لتعيدنا إلى مربع الخسارة العظمى، وإلى نقطة قبل البداية..

(أحمد)

بقيّ الترقب يأكل فينا هل كانت تلك الأقدام التي أخافتنا لمجموعة مهاجرة، أم لمجموعة من الشرطة المقدونية، غالبا ما كنا نخاف من أي صوت في ذلك المحيط المظلم القاهر.. كان ظننا في محله، لكن ذلك لم يتبين إلا بعد أكثر من نصف ساعة. حيث بقينا على الأرض ما يقارب النصف ساعة ننتظر سيارة الشرطة التي بقيت واقفة في مكانها.. حتى تحركت مبتعدة. بعد خمسة وأربعين دقيقة سمعت صوت محرك السيارة والأضواء تشتغل مرة أخرى وتحرك ببطء مستخدمين الأضواء اليدوية التي كنت أراها تتحرك على تلك الأشجار التي كانت تفصلني عنهم..

بقاؤنا على الأرض قرنا وليس نصف ساعة أخرى.. للتأكد من عدم وجود أصوات.. فقد تكون السيارة رحلت ويبقى أفراد تلك الدورية مترجلين ينتظرون منا الحركة.. أغلبهم متعاطفون في قرارة أنفسهم مع مأساتنا يقومون بواجب شكلي، بعدها نهضت ببطء شديد وبدأت أبحث عن النياسم[11]، وأضع قدمي على خطواتهم وتبين لي أن العائلة السورية لم ترد أن تفارقني حتى وصول آمن. ثم بدأت أسير

[11] الأرض المداسة من قبلنا.. طرق داستها الاقدام..

بذلك الاتجاه الذي هرب منه الدليل.. على مبعدة خمسين مترا من السير عثرت على إحدى المجاميع مختبئة أيضا.. كانت تلك الوقفات فرصة للتعرف على الرجل السوري (أبو صديق) وابنه (صديق) ذي العشر سنوات ثم انضمت إلينا عائلة سورية أخرى وثلاثة شبان عراقيين لم أتعرف على أسمائهم، الأسماء سرعان ما أنساها، ولكني أحفظ الوجه وطريقة الكلام، لأن أغلبهم تعود أن يذكر اسمه الحقيقي، ولم يكن ذلك بالأمر المهم.

(فصل)

تذكرت بأن الدليل قد أخبرني بأننا سنسير بمحاذاة السكة الحديدية إلى لويان وأخبرت (أبو داود) بما جال بذهني من أفكار، حتى وافقني الرأي، ثم تحركنا حثيثا باتجاه سكة القطار الحديدية التي تبعد عشرات الأمتار عنا..

عند الوصول إليها لم نجد بمحاذاتها أي علامات أو أضواء تشير بأن هناك قرية أو مدينة.. لكن على الجانب الثاني من سكة الحديد توجد قرية على مبعدة ثلاثة كيلومترات تقريبا فعادوا يكررون علي السؤال..

- قال بمحاذاة السكة أم عبور السكة؟

- أكدت على محاذاة السكة..

بسبب لغته الإنكليزية التي لم تكن متكاملة. تيقنت أن الوقوف في هذا المكان ليس آمنا ففي أي لحظة قد تعود دورية الشرطة إلينا لذا قررنا أن نسير باتجاه القرية التي صرنا على مقربة منها و بتنا نراها بوضوح بعد عبور السكة الحديدية.

(مناف)

كنا نمشي حيث كان الطريق صحيحا، من خلال حدسنا وإذ بدا يلحق بنا من هنا وهناك بعض من توجه إلى هذه الأمكنة خوفا وإلى اتجاهات متعددة. كان بعضهم يسير خلفنا على خطانا بعدها تحركنا بسرعة عن تلك النقطة ودخلنا حقولا وعرة جديدة ومشينا فيها قرابة

الثلاث الساعات حتى وصلنا إلى مجموعة من الأشجار جلسنا تحتها.. صار عددنا 12 شخصا، بضمننا ولدان وبنت ورجل كبير السن.. قرر (داود) أن يذهب هو وابنه والرجل المسن وابنته إلى القرية التي لا تبعد سوى دقائق عنا.. لعدم الشك فيهم.. ليبحثوا عن كنيسة تأوينا هذه الليلة.

ذهبت المجموعة أما الباقون فقد افترشوا الأرض وحاول الجميع النوم في العراء..

كل فرد منا حكاية ووجهة

(كل يوم خبر عن حَدثٍ سئم العيشَ، ومَنْ يسأم يَذَر[12])

.41

[12] أحمد شوقي

بعد ساعات استيقظنا على أصوات أشخاص يتكلمون، أصوات متوترة تخفي ملامة غليله، نقاش عقيم حول تفاصيل من المفترض ان تترك في قائمة المهملات، والاستعداد الى حياة غيرها.

حملنا حقائبنا بسرعة، وتحركنا خلف الدليل الذي تبين لاحقاً انه لا يعرف سوى القليل من العربية. بعض الناس عندما تفكر في الدفاع عن فكرة معينة، ترفع صوتها، دون ان تسمح للفكرة المعترضة ان تُسمع، وفي الوقت ذاته رفع الصوت طلب مساندة بعد أن تغلبها الحجة الأقوى. رغبت التدخل لتغير مجرى التوتر، لكني لم أجد فسحة لدعوتهم بالاستمتاع بالسماء التي نقشها قوس قزح، ولم انبس بكلمة واحدة، كل الأشياء من حولنا فاقدة المعنى، الألوان نازلة الى الأرض بتدرج لوني هائل، مثل احتفال سماوي، بات همّ السير باتجاه نقطة الوصول شاغل الدليل.

- "الأجل أن يكفّ عنا الأذى أذاه".

بعد نصف ساعة دخلنا قرية في طريقنا، طلب الدليل منا أن لا نلّفتهمُ ونكفّ عن الكلام والهذر. تعمد ان يجعل الاطفال السير على جانبي الشارع، ليروهم. كان الأطفال صاغرين للفضول المتبادل. مع ذلك بقيت نسوة الشبابيك تنظر بريبة. وجوه تكشف قلق وخوف بقيّ يجول في تلك الرؤوس الشقر. قرية هادئة بسيطة البيوت، ايقاع واحد، خطوات مستمرة، مجبرة على عدم التوقف..

مررنا بعجوز من القرية، واشاحت بوجهها الى الناحية الاخرى وهمهمت بكلمة " Invade " لم يفهمها حتى فطحل اللغة الانكليزية.

بعدها أتخذ الدليل طريق الصعود.. صرنا مبتعدين عن الشبابيك التي بقيت تراقب خطوات المندحر، أقدامنا بالكاد تسحب الاخرى، بات الاغلب منا يستجمع قواه ويصعد بالطريق المرتفع. غالبا ما تحتاج الارتفاعات الى اصرار ولياقة بدنية عالية. نحاول ان نستجمع اغلب انفاسنا المتقطعة، بحثا عن نقطة ثبات. لم يبد أحدا اعجابه بالبيوت المتراصة بعناية فائقة. يقينا كانوا لا يريدون لنا التوقف في قريتهم لأي سبب كان. ربما ذلك المسير يذكرهم بشؤم لا يحبونه، وجوه متجهمة بكلام، يعبر لنا عن حالة عدم الرضا. وشوشني "أحمد":

- "اظنه طريق الجلجلة"، ولم ابتسم له.

كنا مرغمون على عدم التوقف. حتى واجهتنا قرية أخرى توزعت على حافة بيوتها مبنية من صخر منحوت، ومصف بطريقة مبهرة. لا صوت سوى وقع الأقدام والتعب قطع الكلام، كأنما مسيرة جنازة شديدة الحزن.

مرت نصف ساعة أخرى تبين لنا اننا متوجهون الى بناية منزوية تقع على حافة منحدر، تقدم بنا، وصرنا بعد حين نواجه بيت قديم، متآكل القرميد، ليس فيه أحد، بعيد قليلا عن أطراف القرية. تهجى "ابو سارة"، بصوته أجش قهره التدخين بضعة الحروف الانكليزية المحفورة على رقعة صخرية راسها سهم اشارة الى الوراء، وضعت على حافة الطريق:

- "كاف سنجة"..

لم يفارقنا القلق بعد أن ترسب فينا، حالة تؤازر وتشد البعض الى البعض. كل منا له أمل الوصول الى المُنتأى.. بعد أن باتت للأمكنة وجه مخيف

لم نرَ مثله إلا في أفلام الرعب. نظرية المؤامرة، غالبا ما تكون حاضرة في ادمغتنا صيرتنا متشككون في كل خطوة. جعلتنا نخاف النوايا المتبيتة. لعلها عصابة تسلمنا الى عصابة سلخ الجلود وبيع الاعضاء البشرية؟.. مخاوف واحتمالات جمّة..

تقدم "الدليل" من كوة قرب الباب، ثم مدّ اصابعه اليها فاخرج منها مفتاح قديم، ثم فتح به الباب. دخلنا باحة ارضيتها خشب المتعفن، وقال:

- "يمضي علينا هذا النهار، وننطلق ليلا".

صعدنا سلم خشبي من عدة درجات، أزّ تحتنا، واجهتنا باحة أكبر في الاعلى، أدت الى ممر، ينتهي بثلاث غرف متجاورة، ومخفية. تقدم وفتح أول باب مشيراً علينا بالدخول اليها، فهم ان الخوف هو سبب ترددنا، فدخل، ثم دخلنا خلفه.

حضر معنا الخوف الذي بقيَّ يجول الفضاء.

تفاجأنا ان الغرفة لم تكن خالية من البشر، حيث استقر في عمقها بعض اللاجئين. الخوف ذاته هو الذي اخرسها. صورة جامدة حوت على ما يقارب العشرين (افريقي وافغاني وسوري وعراقي) بينهم أبو صديق، وولده، والرجل السوري المسن.

كان خوفنا من بعضنا البعض، الجزء الخطر المتداخل في حلقات مسلسل القلق. بينهم من عرفناه جعلتنا نعرف ان حالهم من حالنا.

كان ذلك البيت نقطة استقرار، مؤقتة لحين قدوم الليل. قال أحمد "لم يرفق أي نهار أو ليل بمهاجر". في الغرفة التالية حوت نسوة مترقبات من جنسيات مختلفة، (افغانيات، افريقيات، وعراقيات، او سوريات)، ملابسهن هي جنسياتهن.. اما الغرفة الثالثة قد تكون للإدلاء أسياد المكان. غاب الدليل عن اعيننا، ثم عاد الينا، موزعا علينا عبوات ماء للشرب، كنا على يقين ان أغلب الادلاء الذين يعودونا على بين الحين والآخر على الاختفاء، والظهور؛ غالبا، ما يبيتون تركنا نواجه الخطر. قبل وقوع الخطر عليهم.

مرت علينا ساعات باردة في المكان الجديد، الذي لم تغمض فيه عيوننا لحظة واحدة، نخاف ان تقفل الباب علينا من الخارج، راحت فيها الوجوه تتفرس الوجوه، تستقرأ المحنة. ولكنها لم تكف على طول تلك الساعات، النَهْرْ والزجر، اصوات لا تقوى الا على بعضها، تتطور الى مشاجرات دفينة. ذلك الأمر قد ينفجر بنا، ويؤدي الى عواقب لا تحمد عواقبها، في ظرف لم نكن نعلم فيه ماذا ينتظرنا ؟..

.42

بقي يحدثني عن العم "عباس الأموي" الذي كان يحبه كثيراً، وبقي يسهب في قصته ابتدأها بتورطه في لعبة بواسطة "الايميل" حوالي عام 2003م، تلك اللعبة كانت تستقطب كل فرد يصغي الى موال الربح السريع. شرطها الأول ان يقدم من بريد الكتروني، خاص، طلباً يروم قبوله كمشترك بين

المشتركين، ثم الاجابة عن بيانات شخصية دقيقة، ضماناً لحقه من الضياع، ثم دفع مبلغ اشتراكه 250 الف دينار، يبعث الى رقم مصرفي. بعدها ترسل له التعليمات، متضمنة الكيفية التي يصبح فيها رئيس مجموعة، مُتَضاعفْ الأرباح. ذلك لا يتطلب منه سوى دعوة خمسة أعضاء من محيطه كوسيط للاشتراك في اللعبة، يذكروا اسم من دعاهم الى اللعبة، بعدها يتعين "رئيساً" بين الرؤوس الكبيرة، وربحه سيكون أعظم من أرباح الذين سبقهم، مثلما تتفرع الشجرة الى اغصان. كل فرد يسعى ليكون "رئيسا".. حتى تصل أرباحه الى خمسة أضعاف، ويتم تسليم الدفعة الاولى من المال بعد شهر من ترأسه، وسيكون له "كود نمبر"، مثل اي رجل اعمال يمكنه استخدام المال من أية بقعة في العالم، وكيفما يشاء. وبقية وعود اخرى.

أول حقيقة يجنيها كثمرة نجاح عندما تصله بواسطة البريد المسجل المضمون، حتى باب داره، مدالية أنيقة، عليها شعار اللعبة، مصنوعة من معدن صقيل، (في حقيقتها لا يساوي ثمنها عشرة الالاف، مع رسالة مغلفة بكارتون أنيق وصقيل تحمل الشعار ذاته)، تذكره بوجوب الدفع الثاني والأخير.. ليتسنى لهم ادراج في حسابه أول دفعة من الارباح التي استحقها.

فيبقى اللاعب متابعاً متربصاً الـ(Email)، عسى ان يصله جديدا منهم، وغالبا ما تكون تلك الوصلة هي آخر عهد له بهم. لكنهم يتواصلون مع البقية المغررة، ليصلوا الى مرحلة ما وصل اليه من الأمر.

فيما بعد؛ بعد حين توجه اليهم أفراد مدربين قاموا بتصفية جميع اللاعبين كل في محلّ سكنه. لم تكن تلك التصفيات على اساس طائفي، ولكن

على اساس المعلومات الدقيقة التي كانت من شروط تلك اللعبة، التي كانت اساسها، لأجل ان تعمّ فوضى الطوائف، وتفريغ الوطن من مواطنيه، فيصفى لهم تسيّد الفساد، واستنزاف الثروة بإكتمال ثوابت نظرية المؤامرة. تنه لعبة، وتبدأ أخرى.

تستمر الحكاية: "عباس الأموي" ممثل مسرحي معروف قتل بثلاث رصاصات أطلقت عليه عن قرب ولم تخطئه، حفرته عميقاً، خترقته من الصدر والبطن محدثة خروماً صغيرة، طلقات خاصة، تنفجر بعد أن تصيب هدفها، فأكلت بقية ظهره.

أكملت امرأة الحكاية:

-"بقي يحدثني عن الحدث البشع، الذي حدث امامه يومها كان في الخامسة عشرة من عمره".

بقيّ الى ايامنا، هذه، يصف تفاصيل عن بشاعة الحادث شارحا اسباب تأخر نقل (عمه) الى المشفى القريب، حيث لم يعرف احد من المسعفين كيف يحمل جريحا فقد نصف ظهره، حدث هلع عظيم، ومربك. لحم الضحية بقيّ ملتصقا بالأرض. كان يصف لي المكان الذي غص بالناس ولم يتحمل احد منهم ذلك الموقف العصيب، سرعان ما فارق الحياة، لحظة صعوده الى السيارة.

بات ابني يروي أدق التفاصيل، مكابراً، كأنما لم تؤثر فيه، لكنها احدثت ألماً موغلا في نفسه، بعد الحدث الذي حدث امامه، يتكره في كل وقت، وفي كل مرة، يتذكر تفصيل جديد يضاف الى تلك التفاصيل التي لم يروها لأحد، القاتل كان في مثل عمره، مراهق يرتدي قبعة، اطلق النار على

هدفه على مبعدة متر واحد، ثم دسّ مسدسه الكاتم في حزامه، بثقة، وخرج يمشي بين الناس متحدياً كل من أنتبه الى تلك الحادثة.

تلك التفاصيل الدقيقة بقيت تحفر في مخيلته المخاوف تلوّ الاخرى.

أحيانا يذهب الى التقيؤ كلما سمع صوت اطلاقة قريبة منه. لم يستطع ان يتخلص من ذلك الكابوس حيث كانت الاجواء كلها حالة من الاطلاقات، الزواجات، الاحتفالات، ورغم ذلك لم يتغير شيء حيث بقيت تلك الاغتيالات حاضرة في الشوارع، مسدسات، بنادق آلية تطلق حممها كأنها بقيت تقتل عمه أمامه في كل مرة.

وتستمر الحكاية:

كان ذلك الولد الشاهد على اغتيال شقيق والده، اذ يحبه كثيراً، المدلل من جميع افراد الأسرة. مصادفة تعرف الى صديقة على احدى مواقع التواصل الاجتماعي، استطاعت تحريضه على الهجرة مع وجود فرصة كبيرة لقبول بين المهاجرين غير الشرعيين.

كانت تصف له عالما يُمكنه التخلص فيه من كل ذلك الضغط. اقتنع بذلك الفضاء الاثيري، ومن ثم؛ بيَّتَ خطة، ليفلت بها من تعلق والدته به، كان ذلك الامر من اكبر الموانع التي اكتنفت حياته، ولكنه استطاع ان يقنع امه ان يزور تركيا لفترة محددة، وان يبقى فيها مع اصدقائه، بحجة الامن، بعض الوقت ومن ثم يعود، وكان له ما أراد..

بقيّ على اتصال هاتفي معها، ودون عودة. تمكن بمساعدة تلك المرأة الالكترونية أن يعبر من تركيا الى اليونان، بواسطة زوارق الموت، وان يتخطى جميع مراحل التجربة لأجل ان يستقر في "النمسا". تاركاً أمه تعضّ على اصابعها ندماً.

ولكنها بعنادها الأكبر، استطاعت الأم ان تكون لها نقطة اتصال على مواقع النشاط الاجتماعي، وان تتبع الخيط كله، حتى تعبر البحر، دون ان تهمها المخاطر.

الغربة ليست البعد عن أهلها بل عن أملها. الغربة غامضة، لا تتكشف معناها، مريرة، وعصيّة التصوير.

.43

(أنحدرت لأستريح قليلا في أول منخفض صادفني، بعد أن هدّني التعب. كان المكان نظيفا شجعني على الاستلقاء، رحت أتنشق الهواء عميقاً. بعد قليل سمعت صوت نباح قريب، غمرني خوف شديد، من مجموعة الكلاب القريبة، لم يسبق لي التعامل مع كلب. عدلت عن الاستراحة، ونهضت أواصل خطوي بمحاذاة السكة الحديدية.

سمعت صوت رجل ينزل من فوق، ويصرخ بلغة غير مفهومة.. لم أستطع الرؤية هل هو شرطي أم أهل من القرية المجاورة.. تبين لي يحمل عصا غليظة. صرخ بي:

-"اين ذاهبة؟"

قلت له: "أريد اللحاق بابني!"

ولم يجبني ولكنه اقترب مني أكثر، ثم وضع يده في سروالي، وأخذ كل ما أملك، إضافة الى جهازي النقال، ثم دفعني قائلا:

-"أذهبي راشدة والا حطمت رأسك بهذي العصا".

استفقت فورا من تلك الغفوة، عرفت ان ذلك كابوس من بعد التعب الشديد).

(مهند)

تبين أمامي جبل عالي من الصعوبة جدا تسلقه، ومن خلفي أشجار متشابكة لا اعرف ماذا سيكون بعدها وعلى يميني بناية لعلها نقطة للدرك. وقفت متأملة ماذا سأفعل. فكرتُ بإبني كيف تراه عبر هذه المخاطر التي تمرّ أمامي، وكأني أمام فليم سقيم، اريد ان اصل نهايته، هل التقي به، اراه.. ماذا تراه فاعلا في وحل هذه الغربة المقرفة، لولاه لما فكرت ان اترك بيتي لحظة واحدة.. اخذتني الافكار بعيداً، بعد لحظات سمعت صوت قطار يدمدم من بعيدا يقترب فعلا كان قطار يدمدم خلف الاشجار وعلى بعد 2 كم تقريبا. ومن دون تأخير قمت بغطاء وجهي بالسترة التي كنت ارتديها.. ثم ركضت داخل الاشجار المتشابكة بسرعة، وبقوة من أجل لا ادع غصنا منها يجرح وجهي، امل الخلاص جعلها لم تكن مسافة طويلة.. حتى بقيت امامي مساحة من الارض، مغطاة بالثلج.. كانت برك ماء

متجمدة، سَهَلَ علي ذلك الانجماد عبوري فوقها. حيث واصلت السير باتجاه السكة الحديدية.. مضيت بالسير المتواصل ثم جلست استريح، بعدما انهكني الجوع، ولا أجازف مرة اخرى بأكل الثلج.. كنت أمني نفسي ان أجد قرية فيها بائع يبيعني ما احتاجه من طعام يسد رمقي.. اخذني الاصرار على النهوض والسير مرة أخرى بعد كل استراحة، بقيت بمحاذاة السكة الحديدية وأخذت تدخل بين تلال صخرية وفوقها منازل وحقول صغيرة وكأنها قرية..

(مناف)

بعدها التفتُ الى "أبو صديق" وسألته عن الخطوة القادمة، فأخبرني:

- ان هذا المكان يعود للمهرب "بنغلاديشي" يدعى "علي بابا".

فضحت لي تعابير وجهي ذلك الاستهجان الذي اضحكني، وقد علم بكل ذلك من "كروب على الفيس بوك"، قال ايضا:

- "هذا المساء لديهم رحلة الى صربيا" واضاف

- "سوف يصاحبه هو وابنه في هذه الرحلة مقابل مبلغ (500) يورو".

فلم يكن لدي الوقت لاتخاذ القرار بديل، حيث لا أمان في بقائي وحيدة، وان اقبل هذا الانجراف بدون خيار آخر، سوى ان ادفع المبلغ، وامضي معهم.

في ذلك النهار حاولت النوم لم استطع بعد فترة قليلة شعرت بالاختناق وألم شديد في منطقة الصدر.. خرجت بعدها مسرعة الى الخارج، من اجل الاستفراغ، احدهم سألني ان كنت حاملاً، قبل ان اجيبه أني تجاوزت الخمسين من العمر.

شاهد بعينه مع القيء كتلة سوداء، جعلته يعتذر، ويجزم "الحالة تسمم في المعدة".كان مشوار من الالم يزداد علي في منطقة الصدر، غليان في المعدة، أو شيئا يحترق.. اكثرت من شرب الماء، لأساعد معدتي على طرد ذلك الفساد. تماسكت جيدا لأجل السيطرة على نفسي؛ لأن الجواب سيكون اعتذارا عن عدم قدرة تقديم أية مساعدة تتعلق بالذهاب الى مشفى، لان القانون سيحكمه عشرين سنة.

كنت أنام قليلا وبعدها أنهض راكضة الى الخارج لأطرد ذلك المحتوى الغريب. في الساعة الثانية عشر ظهرا، اضطررت النهوض يائسة، ان أنتصب بقامتي مقاومة لذلك العارض الذي سيمر حتما.

في الساعة الخامسة تمّ جمع النقود واحتفظت بالمتبقي في بطانة السروال في جيب صغير تحسبا لكل طارئ.. بعدها في الساعة السادسة حملنا حقائبنا وتحركنا خلف الدليل)

(أحمد)

(الأهم ان تأتي الي اشارة ما، بعد شعور بالضياع، في مكان كله متشابهة التضريس، ولكنه ثمة مفاجئات قد تؤدي الى ليس ادري، تركت "ابني" يرحل دون ان يخبرني، تمنيت ان اراه ومن ثم أموت، هكذا ميتة في مكان موحش وحيدة، يهزني الخوف هزّا عنيفاً. قالوا: منطقة ممتلئة بالدببة، وكل ما في الغابة حيوانات مفترسة. الخوف يتفاقم الى خوف اكبر.

لحظة ما واذا اشاهد مجموعة عصافير تتابع على الخروج من مكان أمامي. تلك الاشارة وصلت في الوقت الذي كنت فيها يائسة من كل أمل.

تلك هي الإشارة الربانية المرسلة في الوقت المناسب، بعد أن تصاعد الاحباط، ويفتك بي. اذ اشرقت في كياني كالأمل، جعلت مني أتنفس الصعداء، واضحك كالمجنونة، حيث لا جنون في عالم مطلق طائف في الازمان، فقدت فيها الامل بالوصول الى نقطة بشرية، كأنما كنت بطلة في فليم رعب، امامي المستحيل تحقق، وجدتني المح اسطوانة مغروسة في الارض، ومرتفعة عنها قليلاً، فيها فتحات لشبابيك متعددة، كان احداها له مقبض قابل للفتح، وفتحتها دون ان اتردد. كما وان طاقة القدر فتحت لي اذ تبينت فتحات هوائية تابعة لذلك النفق الذي لم استطع ان اجد له مدخلا. مددت رأسي للتأكد، ثم تشجعت على الدخول فيه تنفست الصعداء، القدر صحح لي طريقي، استطعت ان احشر نفسي، وانزلق داخل الاسطوانة كي اصل الى طريقي الصحيح، جلست انظر جيدا حولي، كأنما نقطة استراحة، حيث في كل نقطة اخلع الحذاء والجوارب المبللة محاولة مني لتنشيفها من مياه البرك التي تخبطت فيها. بحثت عن قطع الملابس على امتداد عيني عساها تنفعني، بينما انا ابحث

بين القناني الملقاة حتى وجدت واحدة غير ممتلئة ولكنها محكمة الغطاء، بللت شفتي مسحت وجهي بالبقية. كنت على اهبة الاستعداد الى المرحلة المقبلة).

.44

تبدأ حكاية أخرى: روى ميثم عن نفسه، حكاية تستحق ان تحكى حول ما ورثته زوجته عن أبيها وعمتها بيتاً كبيراً في "الكرادة" ببغداد، بيت راقي وفخم، كان محتويا على مسبح 7 أمتار طول خمس أمتار عرض، اشتراه من مهندس مسيحي هاجر الى كندا قبل تغير النظام، وبعد تغير النظام أُجبرتْ زوجته على بيعه بثمن بخس بعد تهديدات جدية.

.45

(لطالما تمنيت أن أكون بحرا، فكنت[13]).. جملة قرأتها، ولا اعلم حتى مصدرها.. الكتابة تحتاج الى معلومات دقيقة، تقرّب القارئ، تسحره، تجعله يستسلم بشغف الى محتوى الكتاب، تفاصيل دقيقة تشبع فضوله، معلومات ليست موفورة في كل مكان. الموضوعات الحياتية متشابهة، جعجعة، كلنا نعيش تلك التفاصيل فلا ينبغي ان يكتب الكاتب عن المتشابهات، عليه ايجاد تلك المسار التي لم يسبقه اليها احد، تشوق القارئ. أخرجت الهاتف وقرأت رسائل قد بعثها صديقتي (أم ساره) التي فارقتها في احدى المراحل..

---

[13] بابلو نيرودا

اخبرتني بانها وصلت الى مرحلة قريبة من المرحلة التي وصلتها.. أردت أخبارها أشواقي، لكن البطارية لم تعط فرصة ثرثرة لا طائل منها، فأنزلت الهاتف جيبي، وجلست لأرى ما حولي، وماذا يمكنني عمله.. تأملت أحوالنا، أين وصلت بنا الخطوة. خيال السياسي، يتطلب معرفة أكيدة، ليجيب جوابا دقيقاً، في الوقت ذاته كل المعلومات الطائفة على السطح تخفي معلومات دقيقة بالغة الفعالية. لو كشفت لتوضحت النهاية لتلك المسارات المتصادمة، معلومة خفيّة، ولا يمكن ان نصل اليها، نحن ابناء العامة، المعلومة السياسية خفية، واي شيء نتحدث عنه، هو تذاكى في غير أوانه. أحبّ أن أعرف يقين المعلومة التي ليست تحت التداول، لأجل ان يعمل ذلك المخيال بصورة حسنة، اذ يتطلب على الاقل، معرفة اساسيات العقل، فأجزم حول "الاسلام السياسي" بات البديل لتمزيق تلاحم الأعداء، في زمن كل عدوّ متمسك بفكرة يريد بها ازاحة عدوه الاقتصادي عن طريقه، لا يهمه الثمن مهما كلف من ارواح أو أحدث دمار، يستخدم كل شيء. يبرر الغاية بالوسيلة.

الصرخة ذاتها التي سمعتها في الوادي، عاد منها الصدى.. ذاتها هي التي باتت تشير نحو هيمنة متهمة في فبركة افتراضات لا حدّ لها، أخبار حقيقية وأخرى كاذبة الحقائق بالأوهام. ليس لدي ما اقوله، مثلما كان "ميثم" يقوله لي. في كل مرة بقي يودّ شرح شيء يشك فيه، ولكنه يجهله. كيف يمكن لشخص ان يشرح ما لا يعرف، كنت اقول:

- "جيل مهزوم لا يستطيع ذلك، مها حاول ظننا منه انه يفهم، وهو لم يفهم نفسه". ثمة قول من هنا، وآخر من هناك.

- صرت لا أشك ان هناك حلقة ناقصة من مسلسل العقل الذي يجب ان نسير على هديه.
- "لا أجزم باليقين".

دائماً بأن اليقين للفعل الذي يترك نتائج، حيث لا يمكن العودة منه الى نقطة الصفر، حرب افتراضية تحرك تلك اللذائذ الصغيرة المشتعلة بين جناتنا، لذائذ افتراضية يحدثها (Games) مشوق، تؤدي الى موت صادم..

من المسؤول عن تلك الحروب التي صيرتنا بلا مستقبل، ثورات تسرق الاحلام من بين طيات الكتب المزعومة بالحضارة، لتجلجل فوق رؤوسنا ساعية لان تطيح بنا. الاحلام ذاتها؛ مسميات، فككت ترابطنا بنجاح، بمعلوماتها لتقبض بمهارة على كل الترهلات الرهيبة، وتشدها.. "هيمنة ما لا ينقصنا سوى اسمها" استخدمت كوكب الارض، وما عليه؛ هؤلئك المعتمرون قبعات علامة خاصة؛ عبيدٌ مسخرون لقياد الخانعين. اراهم جنودا بتسلسلات لكل مهمة موكلة.

لأني على يقين ان ذلك المجهول لن يبقى مجهولا، وان تذاكيهم علينا لن يبقى مهيمناً الى الأبد.

في كل لحظة يتفاقم الشعور بعدم الاستقرار، يقضّ لنا المضاجع، يميد الأرض من تحتنا، لأجل التلاعب حتى بالهواء حتى يوافق أمزجة رؤسائهم.

تغيرت المفاهيم لجميع الاشياء في بنية ذلك العقل، ثمة شعور ان من يفعل تلك الفعال يريد البقاء مستفيداً من كل نتائجها. لذلك تراه باقيا يقود

القطيع من وراء طاولة "المنتأى"، متحكما بالمصائر، ضمن سيطرة أنامله المخملية، أوامره المبتكرة تصل عبر لحظات الى "كروباتهم" المتخصصة، الصاغرة، لأجل أن يمضي الكوكب الارضي كما يراد له.

.46

تستمر الحكاية: صباحك ورد؛ ليلة البارحة شغلني الماسينجر الصوتي..

"ابو ساره الجميل" صوته الدافئ عميقا يعبر الليل ليصل إلي في الصباح حسب التوقيت المحلي لمدن الخيال، والالفة والجمال (هنا لا أقصد الجمال جمع مفردة جمل او ناقة)..

سبق ان تعرفت اليه منذ عام 1980م. لا يقرأ كثيرا، ولكنه لو قرأ، حفظ وبقى يردد بعمق ويشرح الابداع الذي اعجبه. يحفظ الكثير من المقاطع التي وردت ل"ستيفين ديدالوس" في رواية صورة الفنان لشبابه، جميس جويس رحمه الله.

تعيّن مدرساً مادة الفيزياء المرحلة المتوسطة بعد عام 2003م..

كنت مشتاقا اليه، (الوطن؛ هو الاصدقاء) ولم التق به منذ أربع سنوات. في العطل ينام النهار كله، ويسهر في بيته، يسكر ولا ادري كيف يواصل بقية مفرداته في ليله الطويل.

في كل مرة كأنه قد نسي اخباري، ينسى اخباري انه يريد الهجرة، ان يبيع كل شيء، ولكنه مرتبط "بامرأة متعجرفة لها صلة قرابه بكل سلطة دينية لا تقبل ترك بيتها"، وايام صدام كانت رفيقة مناضلة في الحزب والثورة، والان

لطّامة لا تفوّت زيارة دينية، تعتبرها حج.. أظن؛ تعرفت عليه، وتزوجته سكرانا"، لا شيء سوى التهكم الجميل المليء بالاسى. ذاته "ابو ساره" أيام القائد الضرورة ضبط هارباً ومزورا لدفتر خدمته العسكرية.. حكم أربع سنوات، وخرج مدمّراً يجيد خلط الحبوب المتوفرة، لأجل أن يبقى طائفا فوق الغيوم.. كان يعلم ان الابعاد الاسلامية في البعث المتأخر تركت ترسباتها في قعر القدر، حيث الرفيق "ميشيل عفلق" أعلن اسلامه، وتحالف القائد "صدام" مع اليمين الاسلامي، واطلق "حملة ايمانية" بحجة مقاومة العدوان الامريكي الصليبي، أحدث تصدعا كبيرا في كل المفاهيم، كانت بداية بذرة تأسيس مرحلة الخراب التالي.

وجدتني أحبّ صديقي لأنه إنسان رغم أزمته، متوازن جدا، وطيّب جدا.

لدى صديقي ألف حكاية في باطن حكايته.. وإن طال حديثي معه حول كيفية استخدامات الماسينجر لأكثر من ساعة، الا انه كان باعثا على الارتياح، ودّعته متعبا ونمت، (هههههه = ضحك الكتروني)..

ثرثرتنا نصوص، تحتاج الى موال، وغناء لأنها محبة صادقة. فرض الماسينجر الالكتروني نفسه، واثبت بوجوده كحقيقة دامغة فاقت الخيال.

.47

في أغلب الأحيان تلازمك كلمات وأسماء ومعلومات تحضر الى ذهنك، تستخدمها تهكماً، وتحاول التذاكي في تهجيّها بالعربية وبالإنكليزية الرجل غيّر مصير اهل كوكب الأرض. (اسمه الثلاثي والرباعي واللقب، والديانة والمذهب: "هوارد هثاواي إيكن/ Howard Hathaway Aiken"، ولد في 8 مارس 1900 عنوانه السابق: مدينة "Hoboken : City in New Jersey"، حاصل على شهادة الدكتوراه في الفيزياء من "جامعة هارفردHarvard University" في عام 1939، قادته أبحاثه إلى نظام معادلات تفاضلية يمكن حلها فقط باستخدام التقنيات الرقمية، اخترع "جهاز حاسوب كبير" Computer، وطوره في ثلاث مراحل، حتى مات عن 73 عام في 14 مارس 1973).

وجهةُ اللاحكاية في المكان

(قد ابيضَّ وجهُ العيد لكنَّ بؤسهم رمى نكتاً سوداً به فهو ابقع[14])

.48

حكاية مع (حالة) قابلتها بحكم طبيعة وظيفتي. وذلك حسب بياناتها؛ عراقية الجنسية، لم تتجاوز الثالثة والخمسين من العمر، أم لولد وحيد، من أجله تركت زوجها، وهاجرت. بيضاء البشرة، طولها 170سم، رشيقة القوام، وكأنما لم تستهوِ الألوان الفاقعة التي يضعنّها قريناتها من مساحيق التجميل. جميع وثائقها أمي تقول انها تجشَّمت جسام المخاطر، لأجل ان نشمل قبول طلبها باللجوء الانساني تحت خيمة منظمة الصليب الأحمر الدولية.

بداية كان دوري كموظفة أولية تقوم بتثبيت أجوبتها عن الأسباب الموجبة لذلك الطلب. واجبي أن أكتب انطباعاتي الدقيقة حول (الحالة) التي تمر أمامي، حالة لها سجل يتطلب معلومات تفصيلية عن طبيعة حياتها السابقة.

---

14 معروف الرصافي

كنت أسألها؛ تجيب تحمل قدري ان اراها وقبل أن يكون مصيرها رهن يدي، لم أستطع مواصلة عملي طوال ذلك اليوم، حالة انسانية من الممكن ان تطيح بوظيفتي.

كاد الأمر ان يلتبس علي، تمنيت لو لم تصادفني هذه (الحالة) في مثل تلك الظروف.

تلك المرأة؛ تخصني، شخصياً ووظيفياً. وكان عليّ ان اتأكد من كل ذلك الأمر. حيث بات ينتظر مني الحسم قبل غيري.

صرت محرجة من صدقها او كذبها، في كلا الحالتين سوف تنكشف من عدم تطابق بياناتها مع بيانات (حالة ولدها)، بيانات تُفَنِد الأخرى. فلا يمكنني المواصلة مع "اختلاق أكاذيب غير قابلة للتصديق" بيانات المهاجرين غير الصادقة تُعَقِدْ الأمور علينا. فتعصى المساعدة، بالتالي ينقطع الأمل معها. لا أريد ان تسجل علي نقطة تقصير وظيفي، لذلك محنتي ان أواجه صعوبة مركبة تؤدي الى ارباكي.

أعرف عنها الكثير، دون أن تتكلم، وقبل ان تعبر البحار، اعرفها قبل ان تدرج أمامي كحالة؛ تلك الإنسانة الوحيدة التي كان يحدثني عنها كثيراً الى درجة أني تمنيت مقابلتها عبر الماسينجر ولو لمرة واحدة، ولكنه كان يتمنَّع من ذلك بحجة تأجيل الأمر الى وقت مناسب.

وانا بدوري كثيرا ما حدثت والدي عن أغلب تفاصيل ما كان يحدثني، متلهفة لذلك اللقاء، ولم أكن أتوقع ان تتم مقابلتها في مثل هذا الظرف. اكتشفت الامر حتى صار ان اكون متأكدة منها. حاولت التأكد من كل

جواب، لم أخف من الكاميرات التي امامي، وهي تسجل كل نأمة مني حولها. تسجيلات مقابلة كل حالة عرضة للتدقيق والمراجعة، وتعتمد في تقرير قرار اللجنة. كنت متأكدة ان تلك التسجيلات التقطت كل تفصيل، و ربما ثبتت دمعة نزلت.

كانت من بين أطول اللحظات حرجا في دوري المهني، "قرابة بيني وبين الحالة التي تحضر امامي، مخالفة".

تطلب ذلك ان أُحسم الموضوع، وأُثبّت انسحابي فوراً من أي توقيع يعود الى ملف هذه الحالة. ثمةُ عواقب ليست في الحسبان، قد تطفو كبقعة الزيت على السطح، ولن يكون التراجع الآمن هو الحل الأفضل. أجنِّب نفسي ان تكون خارج الموضع، وعليّ أن أرى ماذا يمكن ان يحدث.

- "جئت بسبب ابني الوحيد"،

سافر الى تركيا من أجل السياحة، واذا به يخبرني لي انه ليس في تركيا، وإنه عبر بحر الموت، حيث هو لم يتعرض الى اي ضغوط في بلاده تجبره على تحمل كل هذا البلاء حتى يطلب اللجوء الانساني في دولتكم.

"صراحتها قد تفشل قصة ولدها"...

كنت ادقق في ملامحها، الشبه وحده لم يكن كافياً. وأُمني نفسي ان لا تكون أمه.

قصتها غربية مؤثرة، لا أدري كم من الوقت قضيته معها، كنت أعيد الاسئلة، السؤال تلو السؤال.

زميلاتي أعضاء اللجنة الاولية في المقابلة، لاحظن التوتر والاضطراب عليّ.. في كل سؤال، أتوقف كثيرا، بحذر من ترجمة كل كلمة تقولها. طبيعة اسئلتي اخذت منحا شخصي. تلميح تضمن توبيخا، حول معاملة خاصة.

سيرتي الشخصية لن تشفع لي، وان أثبتت ولادتي على هذه الارض من أب عراقي، وأم نمساوية، ولم أغادر الى الشرق الاوسط.

بقيت اصابعي ترجف أثناء تقليب الأوراق المعدة سلفا للموضوع. أصبحت تحت التأثير المباشر، لتلك الحالة، تدخل رئيسي المباشر، وقالت لي بعد ذلك، أنت في استراحة مؤقتة، وان شئت قدمي مبررا لحصولك على إجازة لبقية اليوم.

لم ارفع عن تلك الحالة عيني. قوية الشكيمة ونظراتها مدققة، أردت ان أحكي لها حكايتي مع أبنها، جاء بعد أن جمعتني به صداقة لأكثر من سنتين، أنا من رتب له الأمر برمته، بعد أن جاءت الفرصة المناسبة، ليصل إلي، صداقتي به تطورت.

وصل بصحبة أربعة من أصدقائه استطعت ان اؤمن لهم كل ما استطيع تأمينه، وتعدد مصيرهم بعد ان تفرقوا في المخيمات. الاول والثاني في مخيم بعيد، اما الثالث بعد فشل في المقابلة، استنجد بالكنيسة، ترك ما وجد عليه من دين وصار مسيحيا، وتم قبوله، واعطائه الاقامة الدائمة، والرابع عاد الى اليونان ليعمل مع المهربين.

وبعد زواجي من أبنها، أستحق اجراءات الحصول على الجنسية.. وجدت فيه ما لم أجده في بقية من يتواجد حولي في الرجال.. ربما كان يروق لي حياؤه، ونقاؤه.. بعدها تحولنا الى العيش المشترك منذ ثلاثة شهور، بعد أن اقمنا زفافنا. لم أستطع اخبارها بكل شيء، ولكني آثرت ان أخذها اليه.

اخبرتها القليل عن بعض تفاصيل حياتي ثم سألتني:

- تجيدين النمساوية وانت عراقية؟

استوعبت السؤال وقلت لها مبتسمة

العربية هي لغتي الخاصة، لغة دلالي مع أبي، فقد كان يحرص التكلم بها معي منذ الطفولة، وبقيت لغة بيت ومعيشة، ندرسها في اوقات الفراغ، لغة سرية، بيني وبينه صعبت على والدتي تعلمها. وأتفاخر بها، كان والدي يبرر لوالدتي اصراره على تعليمي اياها "لا ضير لها من ان تعلمها لغة اضافية" ذلك الأمر نفعتني كثيرا، في هذه المرحلة من حياتي، تلك اللغة هي التي جعلتني أكتشف حبيب عمري لغة قدرية جمعتني بحبيب عمري.

.49

بينهم من يدلك على سماسرة متخصصة في ببيع القصص المضمونة النتائج، تبيعك مرويات (مقاربة لأفلام هوليود)، مصاغة من الواقع لتكون أغرب من الخيال، قصص مقنعة، وصادمة.. يحتاجها من ليس لديه تجربة حقيقة يرويها، مقابل مبلغ من المال وتصله القصة قبل المقابلة، والاجوبة الكاملة عن

الأسئلة المتوقعة من لجان المقابلة، معها نصائح الواجب اتباعها، أهمها ان اية قصة تتطلب ممثلاً متقمصاً يضمن الموافقة المبدئية بنسبة مئة بالمئة..

.50

غزو مفردة من ثلاثة أحرف..

برا وبحرا وجوا، غزوناهم.. بأفكارنا

او بأفكارهم التي تقيّد افكارنا، غزونا أنفسنا تحت أعتاب بيوتهم..

.51

اعتنيت بها كثيراً، ثم طلبت منها الصحبة في سيارتي، وقدمت بها ضمانتي بإعادتها حتى نهاية اجازتي. قطعت بها مسافة أكثر من ساعتين، حتى اصل بها اليه كمفاجأة..

اتصلت به، ولم اتحدث معه بالعربية ولم اجعل "الأم" تنتبه لغايتي اذ بقيّ منغمسا في عمله الذي تطوع للعمل في تنظيم اللاجئين الجدد، وتوزيعهم، ومتابعة سير الخدمات اليهم. تأكدت من موعد استراحته، واعلمته اني قادمة اليه، حيث موقع عمله.

كنت لا أعرف ماذا انا فاعلة، ولكني كنت أختصر لها ذلك الامل الذي جعلها، تتركها عالمها من أجل أبنها الوحيد.

تيه الحكاية في اللامكان

(أيا بن أخي من أنت ما اسمك ما الذي عراك فلم تفرح فهل انت موجع[15])

أوراق أخرى:

ورقة ملاحظة.

وجدتني الأحظ ان الأمر برمته ليس إلا قراراً عالمياً في تسهيل هذه الهجرة، والتي فاقت اعدادها الخيال، قد تكون مؤامرة مرسومة بدقة للنيل من هذه الدول التي توزعنا عليها، حيث تسرب بيننا، العديد من المجاميع المنظمة تميزت بالقبعات، وقد كانت هي صاحبة المبادرة في اكثر التفاصيل، والتي تدير الموضوع حسب اتصالات ممنهجة، و قد لبست البادرة الانسانية، وكانت هي الهروب من مكان الى اللامكان، الذي بحاجة الى أيدي عامة، وبحاجة الى وجود يكسي هذه المديات الجرداء.

.2

[15] معروف الرصافي

ورقة أخرى: وجدتني أقود نفسي في الحلم نحو الوصول الى مكان ليس فيه حلم، مكان آمن يعجُّ بالنهار الضيق الخالي من الراحة، ولكنه مليء بالعمل. أعمل لأجل ان اعيش وحسب.

ورقة أخرى: (أولا من أربيل حافلة الى تركيا 15 ساعه أزمير/ من أزمير- بودرم 3ساعات/ 50 ليره تركي/ نعم/ من بودرم الى اليونان/ جزيرة كوس عن طريق مهرب يخت 2500يورو/ 30 ورقه/ الى بودرم القريبة من البحر/ نعم/ من جزيرة كوس الى العاصمة اليونانية اثينا باخره 60 يورو/ من اثينا الى مقدونيه 50 يورو/ نعم/ ممكن تذكر كم استغرقت من الوقت ايضا/ طبعا مشيا حوالي 5 كيلو تعبر الحدود/ ينتظروك الشرطة، والصليب الاحمر يفتشوك ويعبروك/ نعم/ بعدها ركبنا باص الى صربية 60 يورو/ نعم/ هناك في صربية طريقين/ نعم؟/ الاول عن طريق هنغاريا، وحاليا هو مقفل/ نعم/ والطريق الثاني عن طريق كرواتية، وهو آمن/ يعني تصعد باص من صربية الى كرواتية 60 يورو/ نعم/ ينزلك على حدود كرواتية ثم مشيا على الاقدام مسافة 5 كيلومتر/ نعم/ تأخذك الشرطة تسجل اسمك "بصمه جنائية"، ثم تسلمك ورقه طرد من بلدها/ ثم تصعد باص على حدود سلوفينيا/ نعم/ يستلموك/ يفتشوك/ تبيت في (كمب) معد لذلك الشأن/ يحولونك الى حدود "النمسا"/ تستلمك الشرطة، ويرسلونك الى (كمب) تابع للصليب الاحمر ومن ثم يرحلك/ نعم/ يصعدك حافلة او قطار يسلمك الى حدود "الدنمارك"/ قطار ثاني للسويد/ بعدين الى حدود "فلنده"، وتلك المرحلة الاخيرة حيث تأخذك

الشرطة الفنلندية، وتسجلك وتدرجك في (كمب)/ نعم/ أوجزت لك ما كاد يقضي عليّ حتى الوصول)..

.52

في اول اللقاء لم افهم ماذا حدث بالضبط.. صورة لم افهمها، ولم اصدق ما فيها من فوارق.

ما ان اقترب منها ليحضنها فرحا، حتى تراجعت قليلا، ورفعت نعلها بيدها اليمنى.. كأنما ارادت ان تضربه، ولكنها لم تفعل. لوَّحت به، ثم رمته جانبا وقالت له:

- "أدب سز تقشمرني،

تقول لي مسافر تشم هوا وانت ناوي ما ترجع..

يله حضر أغراضك هسه نرجع للبيت"[16]..

البكاء بلّ الخدود، زخت غيمة عطاء لم يُحتسب.

- **انتهت-**

01 تموز، 2018

---

[16] باللهجة العراقية الدارجة.

خريطة السفر

وجهة أولى.. 9
وجهة ثانية.. 37
وجهة ثالثة.. 55
(الأم).. 62
(الأم).. 64
(أحمد) 67
(عادل).. 68
(الأم).. 69
(عادل).. 70
(مهند).. 71
(عادل).. 72
(الأم).. 73
(فصل).. 78
وجهة رابعة.. 80
(أسامة) 102
(العم).. 103

(فصل)..104
(مناف)..105
(مهند)..106
(مناف)..106
(الأم)..107
(أحمد) 109
(فصل)..110
(مناف)..111
كل فرد منا حكاية ووجهة 113
(مهند)..122
(مناف)..123
(أحمد) 125
وجهةُ اللاحكاية في المكان 132
تيه الحكاية في اللامكان.....................................139
أوراق أخرى:...139
خريطة السفر 143

Contents

عن المؤلف

كاتب عراقي تولد بعقوبة عام 1961م

• **اصدر الكتب التالية:**

1. حركةُ الحيطانَ المتراصّة (رواية) * بغداد 1998

2. حربُ الحكاية أمس واليوم بينّ تدوّين المُحّبِّ، والكارّهِ 1998م- بغداد

(دراسة مقارنه)..

3 بعدُ الجمرّ.. قبلُ الرمّاد (قصص) * 1999 دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد

4. جمرةُ قرارٍ أبيض * (قصص) بغداد 2000

5. أربعٌ وأربعون متوالية* (متوالية قصصية) 2000

6. ما بين الحبّ والحبّ (قصص) 2002 * دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد

7. زمن ما كان لي (متوالية قصصية)2006 * دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد

8. ورد الحب وداعاً (رواية)1990م " نشرت الكترونياً 2003م"

9. الحُلم بوزيرة (قصص)2010 * دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد

10- متاهة أخيرهم (رواية) 2013م عن دار صافي – واشنطن (ثلاث طبعات)

11- دمه (رواية) 2018 عن فضاءآت – الاردن

12- ليلى والحاج – رواية - بغداد 2019م دار الورشة الثقافية

13- فرن الخواجة – سرديات – بغداد- 2019م- دار الورشة الثقافية

* يكتب بشكل دوري دراسات أدبية في تحسس الأدب الجاد في الصحف والمواقع المحلية والعربية.

mu29@hotmail.com

مُنْتَأَى

كاتب عراقي تولد بعقوبة عام 1961م

• اصدر الكتب التالية:

1. حركة الحيطان المتراصة (رواية) • بغداد 1998
2. حرب الحكاية أمس واليوم بين تدوين المحب، والكاره 1998م- بغداد (دراسة مقارنه)..
3 بعد الجمر.. قبل الرماد (قصص) • 1999 دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد
4. جمرة قرار أبيض • (قصص) بغداد 2000
5. أربع وأربعون متوالية• (متوالية قصصية) 2000
6. ما بين الحب والحب (قصص) 2002 • دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد
7. زمن ما كان لي (متوالية قصصية)2006 • دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد
8. ورد الحب وداعاً (رواية)1990م • نشرت الكترونياً 2003م•
9. الحلم بوزيرة (قصص)2010 • دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد

تصميم: علي كاظم الشويلي

بغداد - شارع المتنبي
مجمع الميالي - الطابق الاول
هاتف: 009647704343692

محمد الأحمد منتأى رواية 2020